أنطونيو سكارميتا

أب سينمائي

رواية

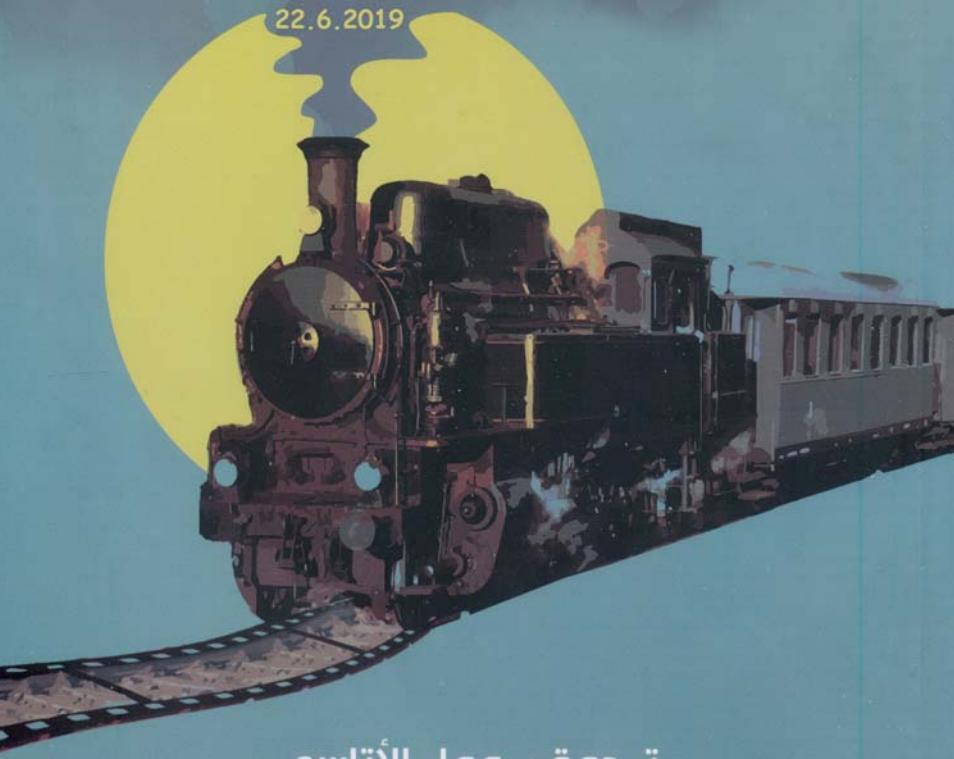

ترجمة : عمار الأتاسي

أنطونيو سكارميتا

أب سينمائيّ

رواية

ترجمها عن الإسبانية:
عمّار الأتاسي

أب سينمائيّ

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

أب سينمائيّ - رواية

تأليف: أنطونيو سكارميتا

ترجمها عن الإسبانية: عمّار الأتاسي

Un padre de película

Antonio Skármeta

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 56 - 2

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

© Antonio Skármeta, 2010

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة دون موافقة الناشر الخطية.

واحد

أنا مدرّس القرية، أقطن بالقرب من الطاحونة، وفي بعض الأحيان تغطي الرياح وجهي بالطحين.

لي ساقان طويلتان، ورسمت ليالي الأرق سواداً تحت عيني.

تتألف حياتي من مجموعة من الأمور الريفية الموجودة في القرية، من صوت القطار المحلي المخنوق والمتعب، من تفّاح الشتاء، من رطوبة الندى فوق جلد الليمون الذي يلفحه صقيع الفجر، من صبر العنكبوت في ظلّ غرفتي، ومن نسيمٍ يهزّ قماش الستائر.

أمّي، تغسل شراشفها العملاقة طوال النهار، وفي الليل نستمع إلى الراديو ونحتسي المليسة المغليّة حتّى تنقطع موجة الراديو بسبب عشرات محطات البثّ الأرجنتينية التي تنشط ليلاً محتلّةً الإذاعة.

اثنان

قريتي تُدعى كونتولمو، وهي أصغر من جارتها ترايغين. أنهيت دراستي الثانوية في قرية أنغول قبل أن أتخرّج من معهد إعداد المدرّسين في العاصمة.

قرية أنغول هي أكبر بقليل من ترايغين. هناك عانيت من فقر دمٍ حاد، ووصف لي الأطباء فيها مصل زيتٍ مصنوع من كبد سمك القد، وكانوا يحقنون ذراعي بمنشّطاتٍ للكبد.

نقلت لي ممرضة في المستشفى عدوى تدخين السجائر الرخيصة، ولكي أقدر على تمويل هذا الفن، الذي سرعان ما أفضى إلى التهابٍ في القصبات، اضطررت إلى البحث عن عملٍ جديد. لكن ذلك كان عرضيّاً للغاية وبلا أهمية.

أبعث مرّةً كل أسبوع مع سائق الشاحنة الذي يحمل الشراشف التي تغسلها أمي لصالح فندق أنغول أشعاراً مترجمةً عن اللغة الفرنسيّة، والتي يقوم مدير الصحيفة بنشرها في ملحق يوم الأحد.

والدي فرنسيّ، عاد إلى باريس منذ نحو عام، أي عندما عدت إلى كونتولمو بعد إكمالي الدراسة في معهد إعداد المدرسين.

نزلت من القطار وقتها، وصعد هو.

قبلني يائساً على وجنتيّ وحضرت أمي إلى المحطّة مرتديةً ثياب الحداد. لم تعوّض عودتي إلى البيت يوماً غياب والدي.

كان أبي يغني بالفرنسية أغاني مثل:

سأنتظر[1]

أوراق الخريف[2]

إنه جيدٌ جداً[3]

إضافة إلى ذلك، فإنّه يتقن صناعة خبز الباغيت الفرنسي المقرمش، وهو خبزٌ يختلف عن المارّاكيتا والكوليسا اللذين تشتهر بهما منطقتنا.

اعتاد أبي أيضاً على إيصال البرتقال والليمون إلى السوق وكان يمر يومياً لجلب الطحين من الطاحونة، وهناك نشأت صداقته مع مالكها.

لم أستطع بعد رحيل والدي أن أقلّد فنّه في صناعة خبز الباغيت، إلّا أنّني حافظتُ على الصداقة مع مالك الطاحونة، فهو يعرف عن والدي أكثر مما أعرفه أنا شخصياً، إنّه يعرفه حتّى أكثر من أمّي نفسها.

---

(1) J'attendrais

(2) Les feuilles mortes

(3) C'est si bon

ثلاثة

انطفأت أمي مع رحيل أبي، كما لو أنّ عاصفةً ثلجيّةً قد أخمدتها.

أنا أيضاً أحببته بشدة، وأردتّ دوماً أن يبادلني هذا الحب، لكنّه لطالما كان غائباً.

اعتاد كتابة الرسائل ليلاً على آلتي الكاتبة المحمولة، ثم تكديسها فوق طاولة المكتب من أجل تسليمها لاحقاً للشاحنة عندما تأتي لأخذ الشراشف. يقول إنّها رسائل يكتبها إلى من كان يسميهم بالفرنسيّة: «أصدقائي القدامى».

أحياناً كانت بعض المعلومات عنه تتسرب من مالك الطاحونة عندما نحتسي مشروب البراندي، وأسمعه مركّزاً جل انتباهي.

لكنّها بمجملها كانت مساراتٍ لا تؤدّي إلى أية حقيقة، فحديثه مثل صمته، كلاهما لا يحمل أي معلومة مفيدة، كما لو أنّه قد اتفق مع والدي سرّاً على ما يسميه بالفرنسية «عهد الدّم».

قرّر بيير الرحيل عندما أوشكت على التخرج في سانتياغو، وقبل أسبوعٍ واحدٍ من عودتي إلى كونتولمو مع شهادة إعداد المدرس للمرحلة الابتدائية، قال لأمي إن سفينةً تنتظره في مدينة فالبارايسو الساحلية، وإن برد الجنوب في تشيلي بدأ يفسّخ عظامه.

نزلت أنا من القطار وصعد هو المقطورة ذاتها.

تطلقُ القطارات في جنوب تشيلي دخاناً.

لم يكن على والدي الرحيل ليلة وصولي، لم أستطع فتح الحقيبة لكي أريه شهادتي. اكتفيت وأمي بالبكاء.

أربعة

النصوص التي أترجمها بسيطة، يستطيع الناس في منطقتنا فهمها. مختاراتٌ للشاعر رينيه غي كادو[1]. أبيات ريفيةٌ لا كاتدرائياتٍ لغويّة.

على العكس من ذلك، في العاصمة سانتياغو تنشر الصحافة صروحاً من أبياتٍ تداعب القدم اليوناني الروماني المحفور في الرخام متأمّلةً خلود الجمال. تنشرها جريدة الميركوريو مرفقةً برسوم لباريس وروما. تحت النصّ وبين هلالين يذكرون اسم المترجم.

أمّا في مقاطعتنا، فإن الجمال لم يكن يوماً خالداً.

في بعض الأحيان أرفق في ظرف ترجماتي إحدى مؤلفاتي مع رجاءٍ لأن يقوم المدير بنشرها، لكن أسلوبه المهذّب يمنعه من إخباري بالرفض، وكذلك يمنعه من نشر ما أقترح.

---

(1) رينيه غي كادو René Guy Cadou (1920-1951): شاعر فرنسي. (المترجم).

خمسة

كاد غياب أبي أن يقتل أمي في الشهر الأول، لم تستعد صحتها قط. بل بقيت ببساطة في مرحلة النقاهة.

انتابها حماسٌ طفيف من جرّاء تسميتي معلماً في ابتدائية غابرييلا ميسترال، ما أدخل إليها شيئاً من بهجة لمعرفتها أنني على هذا النحو لن أهجر القرية كما يفعل الصبية الجنوبيون الذين يرحلون إلى مخابز العاصمة لعجن الخبز.

أن لا تصل الرسائل من والدي لا يعني أنه لم يكن يقوم بإرسالها، فالأمر في الحقيقة أن ساعي البريد لا يصل قرانا. وبالنسبة إلى أمي، فإنه لضربٌ من إهانة كبريائها أن تسأل سائق الشاحنة عن وجود بريد لها في قرية أنغول.

كثرة الأمطار هنا جعلتني أصاب بزكام متواصل. في يومي العادي أعلّم الأولاد اللغة الإسبانية والتاريخ، وفي المساء أقطف البطاطا والليمون والبرتقال بحسب الموسم.

في بعض الأحيان أملأ السلال بالتفاح وأجلب الطحين من الطاحونة.

كريستيان شاربٌ عريقٌ للنبيذ الأحمر، ومئزرهُ مليءٌ بالبقع القرمزيّة.

يعرض عليّ دوماً كوباً منه، لكنّي لا أقبل لأن الشراب يصيبني بالبؤس. على الرغم من أن الحزن يرافقني طول الوقت، إلّا أن شرب النبيذ يسبب لي الأسى على نحوٍ مغاير. كما لو أن فيضاً من الوحدة الغائرة تجري في عروقي.

أنا ومنذ رحل والدي بعيداً لا أريد سوى الموت.

ستة

أقضي معظم وقتي في التدخين وفي بَرْي أقلامي من نوع فايبر 2. أقوم باستخدامها في تصحيح مواضيع الإنشاء لطلابي، فإذا صادفت جملةً لم تعجبني، أمسحها بالممحاة الموجودة في رأس القلم وأكتب مكانها جملةً أخرى كاقتراحٍ مني.

وفي كل الأحوال، فإنّ آلتي الكاتبة مستعارة من العمدة، قدّمها لي لكي أعد ترجماتي بواسطتها.

مواضيع الأطفال متفائلةٌ للغاية، تبدأ العديد منها بشيءٍ مثل: «ينفتح النهار مع شمس تبسط أذرعها اللطيفة فوق الحقول»، أو: «ينبلج الفجر ويُلبس صياح الدّيك الظلال أثواباً فضفاضةً صفراء».

لكنّ أغوستو غوتييريث وحده يخرج عن القاعدة، فيكتب مثلاً: «صياح الشمس يثقب طبلات أذن الديك». إنّه كارثةٌ في الرياضيات، ويعيد السنة بسبب رسوبه، وهو الوحيد من الصبية في صفه الذي خطّ شاربه فوق شفته العليا. لديه أختان.

أذهب يوم الأحد إلى الساحة، أشتري فستقاً بالسكّر وأحتسي مشروب بيلز الغازيّ جالساً على المقعد الحجريّ، فتمر شقيقتاه بقربي وتنفجران بالضحك ساخرتين، فيحمر وجهي خجلاً.

يضع أغوستو غوتييريث نظاراتٍ طبيّة ذات عدسات سميكة، وله شفتان نحيلتان.

سيبلغ من العمر خمس عشرة سنة يوم الجمعة المقبل، أراه يسير في الساحة وبيده كتابٌ للشاعر روبين داريّو.

إنّه يحفظ غيباً «مارغاريتا ما أجمل البحر، والريح تحمل عطراً رهيفاً من زهر»، لكنّه ليس مهتماً بأبيات الشاعر النيكاراغوي بقدر رغبته في خوض حديثٍ معي من رجلٍ إلى رجلٍ آخر. فهو يريد معرفة ما إذا كنت أنا قد ذهبت إلى الماخور الموجود في أنغول، وكم هو ثمن قضاء ليلةٍ مع إحدى الفتيات هناك.

أنفض عن بنطالي الأزرق فتات الفستق المحلّى بالسكر وأخبره أن هذا حوارٌ غير لائقٍ بين تلميذٍ ومعلّمه. فيرد: «إن لم تعلمني أنت معنى الحياة فليس لي سوى القس، أسأله في الكنيسة يوم الاعتراف بالخطايا». ويضيف أنه في عيد ميلاده بعد أسبوع لن يكون هناك حلوى وشموع فحسب، بل إن الحفل ستتخلّله موسيقى رومانسية من أمريكا الشمالية ورقصٌ حميميّ، وأن أختيه قد طلبتا منه أن يدعوني إلى الحفل. تيريسا في السادسة عشرة، وإيلينا في التاسعة عشرة.

أنا في الحادية والعشرين، الجميع هنا محترم للغاية، فتيريسا وإيلينا من عائلة حسنة السمعة بلا أدنى شكّ. لكنّهما كلما ذهبتا إلى سانتياغو عادتا بأثوابٍ ذات فتحات عنق واسعة، وببناطيل جينز تضغط أوراكهن من جهة، وتضغط الهواء في صدري من جهةٍ أخرى.

سبعة

أخلد ليلاً إلى الفراش من دون عشاء، أتصرّف مع والدتي بفظاظة، والسبب هو انزعاجي من فكرة أنني لم أذهب قط إلى الماخور في أنغول، وإنّما ذهبت إلى المستشفى هناك فحسب.

أكاد أصاب بالكوليرا من عدم قدرتي على إجابة غوتييريث، فإنّني أنا نفسي أود معرفة أسعار قضاء الليلة مع الفتيات هناك.

أضع الراديو وأسمع برنامجاً خاصّاً للمغني لوتشو غاتيكا مع ثلاثي «لوس بيريغرينوس[1]»، الجميع اليوم يستمع إلى أغنية: «كم أنت سيئ يا حب»، بل ويعيدونها ثلاث مرّات على التوالي. حتّى أن الجمهور اختار الأغنية لتكون أغنية الأسبوع عبر اتصالاتهم الهاتفية إلى راديو الجنوب.

ثمّة مقطعٌ فيها يقول: «الأبراج التي خالت أنها تحلّق في السماء يوماً، انهارت بذلٍ». إنّه يعبّر تماماً عنّي أيّما تعبير. الأختان غوتييريث اللتان ترمقانني على الدوام بذاك الطرف الساخر لا بد من أن تتمرغا يوماً في الطين، وحينها سأنظر إليهما من علٍ.

---

(1) El Trío Los Peregrinos: فرقة موسيقيّة تشيليّة. (المترجم).

ثمانية

عليّ في هذا المساء أن أحضّر دروس الاثنين للتلاميذ، درس التاريخ سيكون مهماً جداً، فهو عن الحرب الأهلية الإسبانية وعن إعدام الشاعر غابرييل غارثيا لوركا. وعلى الرغم من ذلك، أنهض من بين الشراشف التي تنظفها أمّي بعناية فائقة والتي يكاد قماشها يتجمد من شدة البرد والرطوبة.

أذهب إلى الطاحونة.

يومئ كريستيان لي بأنّ حضوري لم يفاجئه، ويسألني إذا كنت قد جلبت السجائر. فأقدّم له سيجارة ويسحب هو سدادة زجاجة النبيذ الأحمر الفلّينية، ويصبّ كوبين في كأسي حليبٍ يتّسع كلّ منهما لربع ليتر، ثمّ يأمرني بعينيه أن أشرب كأسي دفعة واحدة.

بعد تناوله شعرت بأن مركبة اكتشاف الليلة الفريدة هذه قد بدأت فعلاً بالانطلاق.

وفقاً للطحّان، فإننا أنا وهو بطلان حقيقيّان، هذا أن عدم مغادرة القرية بحد ذاته ملحمةٌ فعليّة.

يقول وهو يبصق بقايا تبغٍ على مئزره:

- أنا أعطي الأولاد خبزاً، وأنت تعطيهم علماً. لم يوجد هذا العالم

من أجل القرى الصغيرة، إنّما نحن من يجعلها عظيمة بتمسّكنا بها. ذات يومٍ ستقوم حكومة ما بتكريمنا، كأن يُطلق اسمك على زاويةٍ في الساحة... لا شك في أنّ والدك أحبك بجنون، رجلٌ باريسيّ جاب أقطاب العالم ثمّ دفن نفسه خمس سنواتٍ في مكان كهذا. كم كنّا نقضي من الوقت سويّةً في لعب الورق!

– هل ذهبت يوماً إلى الماخور في أنغول كريستيان؟

أطلقت سؤالي بعنف الثمل الأبله.

يصب هو النبيذ في كأسه فأطبقُ يدي على كأسي بشدة تلافياً لجرعةٍ جديدة، قبل أن أقف بعنفوان وأنظر إلى السماء المدججة بالنجوم. يدور رأسي أسرع وأعلى من الكون.

– غداً هو يوم السبت يا جاك، فلا أنت تعطي الدروس ولا أنا أصنع الخبز، القطار إلى أنغول يمضي في تمام الثانية عشرة ظهراً، لكنّ الإثارة تبدأ ليلاً.

– «لا يهم». أجيبه تحت الشهب المتساقطة. «هكذا أستغل النهار لشراء هدية لعيد ميلاد غوتييريث».

– شقيق الأختين؟

– سيحتفل بعيد ميلاده يوم الجمعة المقبل، لطالما نظرت إليّ أختاه وضحكتا في الساحة.

– الصغيرة منهنّ منجذبةٌ إليك.

– إليّ أنا! ولمَ تقول ذلك كريستيان؟

– إنهما ضعيفتان أمام الفرنسيين!

– لكنّني تشيليٌّ وفقير.

- أنت لا تزال شاباً، لديك مهنة، ولا تقضي وقتك في حلبِ الأبقار. ربّما ترسلك الوزارة يوماً ما إلى أنغول، أو من يعرف، ربّما إلى سانتياغو.

- ما تقوله يقلقني!

- وما السّبب؟

- إن ذهبنا غداً إلى الماخور، ومن ثم أرسلوني لاحقاً للتعليم في المدرسة وافتضح أحدهم أمري، فما الذي سيحل بمستقبلي الأكاديمي؟

- مدير المدرسة ذاته يذهب لملاقاة الفتيات هناك.

- حقاً؟

- مهما فعلت، فإن أحدهم سيحاول رسم الحدود لك، لا تكن أنت من يرسم تلك الحدود. أي هديةٍ ستجلب لغوتييريث؟

- زوجٌ من قفازات الملاكمة، شاهدته يلاكم ظلّه ويناور في ملعب كرة السّلة.

- إنّه في الخامسة عشرة وقد خطّ شاربه في وجهه.

- تماماً كأبيه. هل سمعت شيئاً عن والدي؟

- لم أسمع شيئاً يا ولد.

- إجابتك غريبة، هل مات؟

- لم يمت.

- كيف تعرف وأنت لم تسمع عنه شيئاً؟

ملأ كريستيان كأساً آخر أفرغ الزجاجة، ورميت نفسي أنا على الأرض.

- ما الذي حدث لك يا ولد؟

- إنني سكران.

- حسناً، لا داعي لمشاهد الأسى تلك، ما الذي يحزنك؟

- أخت غوتييريث!

- الكبيرة أم الصغيرة؟

- إنّها الصغيرة يا كريستيان، لها نهدان جميلان، تملؤني رغبة في التقاطهما وعصرهما كما لو كانا عنقودي عنب. أسنانها تتوهّج ليلاً، أتخيّل نفسي أعض على شفتيها ريثما تمسك هي...

- ماذا؟

لا أرغب في الإجابة، إنّني وحيد بشكل كامل في هذا الكون ككلبٍ حطّمه ضوء القمر. لماذا كان على والدي أن يهجرنا؟

- الصغيرة خيارٌ جيد، لأن الكبيرة...

- ماذا كريستيان؟ ما بال الكبيرة؟

- إنّها ناضجة أكثر من اللازم، وقد تجلب لك المتاعب.

- أي متاعب؟

- سأجلب زجاجةً أخرى.

- لكن، أجبني أوّلاً.

- ثمّة ما هو غريبٌ في حياة هذه الفتاة، هل تذكر عندما ذهبت في إجازةٍ في شهر كانون الثاني ولم تعد حتّى شهر آب؟

- ما الذي تودّ قوله؟

- لا شيء، إنّه فقط لأمرٌ غريب.

- أنا أيضاً رحلت عن القرية. ذهبت للدراسة في سانتياغو.

- فعلاً، أنت غبت سنتين، وهي غابت تسعة أشهر فحسب.

- والأخرى كانت تمشي ممسكةً يد رجل الإطفاء في الساحة.

- الاثنتان بدأتا بارتداء ثيابٍ فاضحةٍ فجأةً. كما لو لم تكونا من هنا. هل لاحظت ذلك؟

- الصغيرة تعجبني إلى حدّ الجنون. لو ذهبت إلى الحفلة يوم الجمعة ورقصت معها فإنّني بالتأكيد سأعترف لها بمشاعري.

يسحب كريستيان سيجارة من علبتي ويضع أخرى في فمي ثم نشعل كلتيهما بعود ثقابٍ واحد.

- لن يحدث هذا لو مررنا بأنغول.

- ليس لدي نقودٌ تكفي، فأنا أستطيع بالكاد تحمّل نفقة شراء السجائر.

- سأدفع أنا للفتيات، وتعيد النقود لي لاحقاً.

- حسناً كريستيان، سأدفع أنا إذاً تذاكر القطار.

أحدّق في القمر مع رغبة في التدحرج على التراب.

تسعة

في اليوم التالي، وفي محطّة القطار، أنظر إلى الساعة هناك فأجدها ثابتة عند الساعة الثالثة وعشر دقائق، بينما تشير ساعتي إلى الثانية عشرة تماماً. يظهر كريستيان حاملاً حقيبةً جلديّةً بلون القهوة، كتلك التي يحملها بائعو الأسبيرين. يرتدي سترةً رمليّة اللون وذقنه حليقة إلى درجة أن أحداً لم يكن ليعرف أنّه الطحان نفسه. في عينيه نقط حمراء، لا بد من أن الثمالة ليل أمس قد خلّفتها.

أرتدي معطف والدي، كان في السابق يبدو كبيراً بعض الشيء، لكنّ السنين قد جعلته يتناسب مع قياسي، خارج بطانة المعطف ثمّة قصاصةٌ حريريّة كتب عليها: «غاث وتشافيز سانتياغو».

تنتابني رغبةٌ في الإيحاء بأني ذاهبٌ في مهمة عمل إلى أنغول بدلاً من أن تكون رحلة إلى الماخور هناك، من أجل هذا اصطحبت معي كتاباً للأديب ريموند كونو، يريد مدير الصحيفة نشره في فصول متعاقبة. إنّ النثر عادة أبسط من الشعر، لكننا سنتعلق بشدة بمصائر الشخصيّات، لأنه لا أحداث تجري هنا، فنحن لسنا أبطالاً، وإنّما شخصيّات هامشية.

ما إن أطلق القطار صافرته وانطلقت أعمدة الدخان عالياً حتّى ظهر

أوغوستو غوتييريث في رصيف المسافرين، وقد خرجت من جيب سترته المدرسية فرشاة ومعجونٌ للأسنان من نوع كولينوس.

- هل أنتم ذاهبون إلى أنغول؟

- نعم.

أجيب وأنا أغلي ندماً.

- وما الذي ستفعلونه هناك؟

- سنذهب إلى السينما لمشاهدةِ فيلمٍ عن باريس، أنا مهتمّ بالفيلم لأنّني أعمل على ترجمة هذا الكتاب.

أجيبه وأنا أظهر له كتاب «زازي في المترو[1]».

- ما هو اسم الفيلم؟

- يدعى «قفص الغيوم».

أرتجل بجديّة.

- أنت لا تقول الحقيقة.

- بلى، إنها الحقيقة يا رجل.

- وهل ستعودون قبل حفل عيد ميلادي؟

- بالتأكيد، فأنا أيضاً سأشتري لك هديّة من هناك.

القطار واقفٌ في المحطّة، ينظر مدير المحطّة إلى الساعة ذات الأرقام الرومانية والمثبّتة في وضعية الثالثة وعشر دقائق، ثم يمرّر للسائق شطيرة من الجبن، وكالعادة لا يصعد أحد أو ينزل من القطار.

تمرّ مجدداً في مخيّلتي تلك الصورة المؤلمة، عندما نزلت أنا من المقطورة عائداً إلى البيت وصعد أبي القطار راحلاً.

---

(1) Zazie in the Metro: رواية فرنسية من تأليف ريمون كنو. اختارتها جريدة اللموند من ضمن أهم مئة كتاب في القرن العشرين. (المترجم).

- «أخشى أن يأتي يومٌ يلغون فيه خطَّ القطار هذا». يحدّثنا مدير المحطة. «إنّهم في إدارة السكك الحديدية بصدد دراسة الأمر، يقولون إن خط الرحلة هذا ليس مربحاً لهم. وأنا لا أريد أن أغدو عاطلاً عن العمل بعد هذه السنين».

- ومتى ستنطلق الرحلة؟

- في غضون دقائق، زوجتي تعدّ للسائق ترمساً من القهوة. نحاول كسب قوتنا ببعض الأشياء، لدينا أيضاً حلوى تشيليّة، سعر القطعة مئة، هل ترغبون في بعضٍ منها؟

- ربّما في رحلة العودة.

يشدّني أوغستو غوتييريث من كُمِّ معطفي فأميل نحوه ويرتطم جبيني بإطار نظاراته الصلب.

- خذوني إلى أنغول معكم.

- لا نستطيع يا فتى.

- ولِمَ لا؟

- إنّه سر.

- ستذهبون إلى الماخور إذاً.

- ما الذي تقوله! الأمر فقط أنني لا أريدك أن تعرف ما الذي سأشتريه لك في عيد ميلادك يوم الجمعة المقبل.

- لا أريد مجسم الكرة الأرضية، لقد أهديتني واحداً السنة الماضية.

- ألم يعجبك؟

- وماذا تريدني أن أقول؟ عشرات وعشرات الدول.. وأنا مدفونٌ هنا في هذا البئر. (يشير إلى بقرةٍ تعبر سكة القطار الحديديّة) ما الفرق بيني وبينها؟

– أنت تعرف ما الذي تريده، وتعي وجودك. أمّا البقرة فهي كائن لا وعي له حتّى بأنه حيوان، إنّها بقرة بالكامل على خلافك، إنّ وعيك يعطيك الحريّة.

ينزع غوتييريث نظاراته مظهراً عينيه العذبتين الحزينتين وقد تجمّعت فيهما قطراتٌ من دموع قصر النظر.

– سأصبح في الخامسة عشرة يا أستاذ يوم الجمعة المقبل، وأنا لا أودّ أن تلحق بي الإهانة لأنّني لم أغدُ رجلاً كاملاً ومتكاملاً بعد.

– ما زلتَ طفلاً يا غوتييريث. سنتكلّم عندما تصبح في السادسة عشرة.

– في السادسة عشرة سأكون ميتاً، وسيمكن لك التعرف إلى قبري من خلال الانتصاب في التراب، ذاك الانتصاب ذاته الذي يحدث في فراشي كلّ ليلة.

يتدخّل الطحّان، فيمسك الصبيّ من أذنه ويرميه لبضعة أمتار باتجاه الشارع.

– هيا اذهب إلى بيتكم ولا تصدّع رؤوسنا يا ولد!

يصرخ وهو يحاول الفرار من قبضة كريستيان.

– خذني إلى العاهرات معك يا أستاذ.

أصعد أنا إلى القطار محاولاً تفادي الصبي، لكنّه يتملّص من كريستيان ويتقدّم نحو النافذة لاهثاً.

– سأعرّفك على شقيقتي، فهي تعشقك.

– الصغيرة أم الكبيرة؟

– الصغيرة. لقد كتبت لك رسالة!

– وكيف تعرف أنت ذلك؟

- إنّها تخبئها في درج الألبسة الداخليّة.

- ما الذي كتبته فيها؟

- إنّ وجودك يجعل الهواء مختلفاً.

- وماذا بعد؟

- أنّك رجل مثقّف.

- أنا؟

- تنظر إلى الكرة الأرضية على الدوام بتأمّل ثم تقول إنها تحلم بالاستلقاء إلى جانبك في شواطئ أكابولكو.

- ومن أين جاءت بهذه الفكرة؟

- من تلك الأغنية التي يضعونها في الراديو: «تذكّري أكابولكو يا ماريّا الجميلة». إنّها متيمة بهذا النوع من الموسيقا.

- ماذا كتبت أيضاً في الرسالة؟

- أشياء.

- أي أشياء؟

- إن اصطحبتني إلى العاهرات سأقول لك.

أمدّ يدي من النافذة وأنقره على جبينه.

- لا أستطيع يا غوتييريث، فأنا أستاذك ولست قوّاداً.

يبدأ القطار سيره، يحاول الفتى تسلق السلالم، إلّا أن الطحان ينجح في صده عبر محاولة صفعه، لكن الفتى يتفادى تلك الصفعة بمهارة السنّوريات. أفكّر في أن قفّازات الملاكمة ستكون هديّة معقولة.

يغادر القطار المحطّة ويضع تلميذي كلتا يديه على فمه لتضخيم صوته صارخاً:

- خذني معك مرّةً يا جاك.

أي أنّني في أثناء ممارسة الجنس مع إحدى الفتيات عليّ أنّ أتذكره لمرّةٍ خلال نشوةٍ ما.

عشرة

هناك في أنغول، وعلى الخليج النّهري، نجلس لتناول طعام الغداء، سمكٌ مقليّ وسلطة تشيلية. أزيحُ أنا البصل عن الطماطم، أمّا كريستيان، فيشرب نصف ليترٍ من النبيذ الأبيض ويقول إنه يريد أخذ قيلولةٍ في القارب الصغير الذي عرضه الصياد عليه. وبالفعل، يصعدُ إلى القارب ويغطي نفسه بأكياسٍ قماشيّة وبشبكة الصيد، ويطلب مني إيقاظه قبل أن يحلّ المساء. أي عندما تبدأ الفتيات بالعمل.

من الأفضل أن نصل باكراً لأن الازدحام يكون شديداً في عطلة نهاية الأسبوع.

أمضي إلى وسط القرية وأبدأ في النظر إلى واجهات المحلات. ثمة ملابس من صناعة يدويّة محليّة، أوشحةٌ وقفازات وجوارب مصنوعة من الصوف الخشن، ولعبة شطرنجٍ نُحتت أحجارها على شكل مقاتلي ساموراي يابانيّين يتقدّم كلٌّ منهم سيفٌ محنيّ. هناك أيضاً كرة قدمٍ احترافيّة وقد وقّعها اللاعب ليونيل سانتشيز، وببغاءٌ مكسيكيّ مصنوع من صفائح فضيّة اللون، وساعة ألمانية بافاريّة عليها طفلان يرقصان بسراويل جلديّة، وصورة لمارلون براندو من فيلم «الجامح» وهو يجلس على دراجةٍ ناريّة

ويضع بين شفتيه سيجارة من دون إشعالها، وهناك علبة من أوراق اللعب عليها صورٌ لفتياتٍ مأخوذة من مجلّة بلاي بوي.

لديهم أيضاً قفّازات جلديّة رائعة للملاكمة ذات لون أحمر قانٍ.

لكنّ كل هذه الأشياء تفوق ميزانيّتي، باستثناء مفكّرةٍ مخمليّة زرقاء كتب عليها بأحرفٍ مذهّبة: «يوميّات الحياة».

أطلب من البائع أن يلفّها لي بورقٍ للهدايا وأن يعطيني بما تبقّى من مالٍ علبتي سجائر من نوع ريتشموند، ثم أتّجه إلى الظلّ في زاوية الساحة، أتّكئُ على صنبور ماءٍ هناك وأشرع في التدخين.

أفتح كتاب ريموند كونو وأضع خطّاً أحمرَ تحت الكلمات التي يتوجّب عليّ فيما بعد البحث عنها في معجم لاروس الفرنسي-الإسباني.

أحد عشر

بعد ساعة، أحس أن إيقاع القرية بطيء كما لو أنه ساعة ميكانيكيّة. وأبدأ في تخيل سيناريوهات محتملة لأحاديث قد أخوضها مع الفتيات، لا حواراتٍ طريفةً تخطر في بالي لدرجةٍ أعتقد فيها أن غوتييريث نفسه كان ليبدو مناسباً أكثر لهذا الحدث. عرفت فتياتٍ في حياتي لكن ليس في الفراش، كان لي زميلات في الدراسة أو صديقات في الحي. كلّ ما يميّزني هو أنّني أستاذ في مدرسة المقاطعة. أسير بضع خطواتٍ نحو السينما، ثمّة عرض مزدوج اليوم، أي إنهم سيعرضون فيلمين متتابعين في تمام الساعة السابعة، أحدهما فيلم «النهر الهائج» من بطولة جون واين ودين مارتين وريكي نيلسون. وثمّة أيضاً إعلان لعرضٍ سيجري الأسبوع القادم لفيلم «رياحٌ عاتية» من بطولة أنّا ماغنيني.

يظهر جون واين في إحدى الصور وقد علّق على صدره نجمة نقيب الشرطة وهو ينظر إلى ظهر أنجي ديكينسون العاري، التي ترتدي ثوباً قصيراً ذا خصرٍ أسود وقد وصلت جواربها إلى أعلى فخذيها.

يقول الإعلان إن فيلم «النهر الهائج» يروي كيف يمكن للمرء أن يصبح رجلاً، لهذا السبب ربّما أقف هناك أتأمّل هذه الصورة وأخرى يظهر

فيها ريكي نيلسون منحنياً وقد تصاعدت كميّة هائلة من الدخان من فوّهة مسدّسه.

يقف بعض المارة لوهلة أمام الملصقات ثم يكملون طريقهم سائرين، باستثناء رجلٍ يضع قبّعةً سوداء صوفيّة ويجر عربةً فيها طفل، يقف ويراقب الصور من دون أيّ اهتمام ثم يشعل سيجارة. لم أستطع في البداية رؤية وجهه، لكنّه ظلّ هناك يدخّن وقتاً لا بأس به، ثم وبعد أن أنهى سيجارته رماها أرضاً وداس بقاياها بحذائه، هنا فقط استطعت التعرّف إليه، أتقدّم منه يائساً وأتشبّث بعربة الطفل وأنا على وشك فقدان التوازن وأنادي:

- أبي؟

يرتبك الرجل وينظر إلى داخل عربة الصغير قبل أن يرفع رأسه باتّجاهي.

إنّهما حاجباه العريضان وأنفه الأحدب وعيناه الأبديّتان الغائرتان خلف الرطوبة، وعلاوة على كلّ شيء آخر، إنها تلك الندبة على وجنته من جرّاء شجاره في الحانة.

- جاك؟ أهذا أنت فعلاً؟ (يقولها بالفرنسيّة).

- بالتأكيد هذا أنا يا أبي.

يتلفّت كالسارق المحاصر حوله ناظراً في جميع الاتّجاهات، يبدو وكأنّه يحاول التأكّد من أنّ ما يحدث ليس حلماً.

- ماذا تفعل هنا يا صغيري؟

- جئتُ أشتري هديّة لأحد طلّابي.

تراودني رغبة حزينة في ضمّه واشتمام رائحة جلده التي يغلب عليها عبق كرسيّ جلدي.

- هل أمّك معك؟

- لا يا أبي.

يدّعي أنّه يمسح عن جبينه شيئاً ما، لكّنه في الواقع يمسح تدفق الندى العارم الذي تراكم في عينيه، يمسكُ بي ويشدنّي بقوةٍ نحوه. لسببٍ ما لا أريد أنا لهذا العناق أن ينتهي.

نفلتُ بعضنا بعضاً وفي وقتٍ واحد يستلّ كلّ منا سيجارةً. والدي أسرع مني في سحب ولّاعته، يشعل كلتا السيجارتين ويمسح بقعة من على وجنته ثم يعود إلى تأمل صورة جون واين.

- «النهر الهائج» منذ شهرين ونحن نقدّم هذا الفيلم في صالة العرض.

- ماذا تعني «نقدّم» يا أبي؟

- إنّني أعمل هنا. الناس يحبّون هذا الفيلم، أهل القرية مأخوذون برؤية ثملٍ مثل دين مارتين الجامح يصوّب بمهارةٍ نحو أعدائه.

- كم مرةً شاهدت الفيلم؟

- اثنتي عشرة أو خمس عشرة مرة، كلما أراد هذا المشاكس.

يشير إلى الرّضيع في العربة. أنظر إليه فيبدأ والدي بإخراج شمسيّة قماشية ليحمي الصغير من شمسٍ غير موجودة، هنا أحسّ أنا بأن ما يحدث الآن مألوف بالكامل بالنسبة إليَّ.

- أشعر بأنّ وجهه ليس غريباً عليّ يا بيير.

يبلع والدي ريقه لبرهة وهو محاصر بصمتي تماماً، تظهر عليه ملامح الشباب فائقة الوضوح وكأنه ليس أبي، بل صديقٌ لي كالطحّان كريستيان.

- إنّه أخوك.

- هذا؟

- إميليو.

- مثل إميليو زولا.

- ها أنت ذا، مثل إميليو زو لا (يقولها بالفرنسية).

- لكنّه ليس أخي بالفعل، أليس كذلك؟

- اسمعني جيّداً يا جاك، لقد جئتُ لكي أدفن نفسي في أكثر الأماكن ظلمةً في أنغول، في حفرة الفئران لكهف حالك السواد، قضيت عمري في التخفّي بين الظلال ولم يخطر في بالي أن أحداً سيعثر علي، أو أنّني مثلاً سأصطدم بابني يوماً في هذا المكان الوضيع من الأرض ومن الجحيم.

- ماذا تفعل هنا يا أبي؟

- أختبئ.

يعدّل وضعيّة قبعة الصغير الصوفية، ويعود إلى حكّ موضع الجرح في وجنته. يبدو أن الحساسيّة تلك قد عادت للتوهّج مجدّداً.

- ومن تكون أم الطفل؟

أسأله بنبرة طبيعيّة، على الرغم من أنّني في الواقع على وشك الغثيان، أو النحيب، أو الموت.

أنا لا أجيد الدخول في تفاصيلَ مماثلة.

يأخذ بيير نفساً عميقاً، ويشعل بعقب سيجارته سيجارةً أخرى من دون أن يتوقّف عن تدخين القديمة. لا يتذكّر في هذه المرة أن يقدّم لي واحدة، وينسى أيضاً أنّني أحدّثه. ينظر إلى سماء أنغول، لا جديد. سحبٌ كثيفةٌ ممزقة المعالم، قد تهطل أمطارٌ الآن، أو في غضون ساعة.

- بابيتو!

- لا تنادني هكذا!

- حسناً يا بيير.

- لقد استخدمت كلمةً تنطوي على خيانةٍ مهولة.

- لطالما ناديتك «بابيتو» إلى أن قمت أنت بخيانتنا.

- أنا؟ أنا خائن؟

وباندفاعةٍ هوجاء يحمل الصغير من العربة ويضمّه بقوةٍ إلى صدره ممسكاً به بين ذراعيه ويضع ذقنه غير المحلوقة على شفتي الطفل. يضع سيجارته في فمي ويعود لتأمّل صورة دين مارتين. آخذ أنا سحبةً قويّة من السيجارة ثم أنفخها بعيداً عن الطفل في الاتّجاه المعاكس.

- هكذاً إذاً، لم تذهب إلى فرنسا يا بيير؟

- قط. (يقولها بالفرنسية).

- كل هذا الوقت وأنت في أنغول.

- نعم. أجل، أنغول! باريس الصغرى. (يقولها بالفرنسية).

- ولِمَ لم تذهب إلى هناك؟

- لكي أكون بالقرب منك، ومن أمّك.

- لكنّك لم تكتب لنا مطلقاً.

- لقد أعلنت موتي رسميّاً.

- الطحّان يعرف أخبارك، لقد أخبرني ليلة أمس أنك لا تزال على قيد الحياة.

- ربّما كان ثملاً.

- كنّا ثملين، أنا وهو.

ساعة الساحة تشير إلى السّادسة. ينظر أبي إلى يديّ الطفل فتغزوه موجةٌ من سلامٍ مفاجئ.

- أحبّ هذا الصغير جدّاً.

- كما تحبّني أنا؟

- كما أحبّك أنت يا جاك!

- إذاً، ذات يومٍ ستخونه هو أيضاً.

- أنا لم أكن خائناً في يومٍ من الأيام.

- وماذا كنت إذاً «بابيتو»؟

يفتح يديه بحركةٍ بسيطة كما لو كان يدافع عن نفسه.

- إنّها الحيرة.

- في رجلٍ في مثل عمرك؟

- تماماً، وبالتحديد. أنا لا أحاول إيجاد مبررٍ. لم يخطر في بالي يوماً أنني سأضطر إلى تقديم المبرّرات لك أو لأي أحدٍ آخر.

- ماذا عن الطحّان؟

- إنّ كريستيان أشبه بمرآة. أقف أمامه فيكونُ أنا، تقف أنت قبالته فيكونك. إنّه لا يستطيع المقاومة، لا يستطيع مقاومتك أنت لأنّك صلبٌ يا جاك.

- أنا قد تمّ خداعي وقضي الأمر يا أبي. إنّني الآن قلقٌ على شقيقي هذا.

يهزّ الرضيع بين ذراعيه ويضع شفتيه على أذنه اليسرى وهو ينفخ برفقٍ هواءً دافئاً.

- أغطيه كثيراً لأحميه من البرد، فهو يقضي معي ساعاتٍ طويلةً في قمرة العرض السينمائيّ حيث الرطوبة الشديدة. لو استطعت سماع تنفّسه لأدركت أنّه يعاني من التهابٍ في القصبات.

- قمرة العرض السينمائيّ؟

- إنّني أعمل هنا في السينما.

أمرّر له السيجارة وأضغط جفوني بأصابعي محاولاً تهدئة النار التي تكاد أن تأكل عينيّ.

- أنت تعرض الأفلام؟

- أقوم بذلك في مكانٍ مظلم ومعزول. وحيداً هناك حيث لن يجدني أحد. لم يخطر في بالي أنه يوماً ما سيأتي ابني ليتلصّص عليّ في هذا المكان.

يمسك أنفه بقوة ويضغط عليه حتّى يحوله إلى اللون الأحمر.

- مع أنّني ذهبت مرّة إلى كونتولمو وتلصّصت عليك.

- إلى كونتولمو؟

- لا أذكر متى قمت بهذا. إنّني أحياناً أحلم وأنا نائم أنني أذهب إلى هناك للتلصّص عليك وعلى أمّك. لكنّني لا أتذكّر متى ذهبت، أو متى حلمتُ بالذهاب.

يعيد إميليو إلى عربته، بعد ذلك ومن جيب معطف البحّار الذي يرتديه يخرج بطاقتين كرتونيّتين.

- هاك! تذكرتان مجانيّتان ودائمتان تستطيع استخدامهما لدخول عروض اليوم: «النهر الهائج» وأيضاً تستطيع الدخول إلى فيلم أنتوني كوين الذي سيعرض السبت المقبل.

آخذُ البطاقتين وأضعهما في جيب معطفي.

- حسناً يا أبي.

- هل ستأتي بصحبة صديقةٍ ما؟

- بالتأكيد، بيير.

- سأكون متيقّظاً إن ظهرتَ مجدّداً.

يضع قبضة يده بين أسنانه، لكنّني على الرغم من ذلك أسمع صوت تذمّرٍ خفيف يصدره مواراباً.

- ماذا عن والدتك؟

- إنّها بخير!

- بخيرٍ بخير؟

- لا بأس عليها، مثلي تماماً يا أبي. جميعنا بخير تقريباً ولا بأس علينا.

- تحبُّ التّدريس؟

- أحبّ تدريس الأدب والتاريخ، وأمّا باقي المواد فتشعرني بالملل.

كنت لوهلةٍ قد نسيت عادته في فرك أصابع يديه بعضها ببعض ثم إصدار صوت طقطقة أصابعه.

- جاك، هذا اللقاء...

- سيظلّ سريّاً.

- إنّك ولدٌ ذكي، أفعل هذا من أجلك، ومن أجلي أنا، بل ومن أجل أمّك أيضاً.

- تفعله من أجل والدة إميليو.

يطلق جاك ناظريه إلى السماء، كما لو أنّه يحاول تحديد الغيمة التي أطلقت قطرة المطر الأولى تحضيراً للعاصفة القادمة بعد برهة. وبضراوة الأم يقوم بإغلاق سحاب عربة الطفل حامياً إيّاه.

أسمع للمرة الأولى صوت الطفل حين يطلق لحسن الحظّ صوت شخيرٍ خافت.

- وماذا عن لغتك الفرنسيّة؟ (يقولها بالفرنسيّة).

- إنها ممتازة يا أبي. أعمل الآن على ترجمة كتاب «زازي في المترو». (نكمل حديثنا بالفرنسية).

- لا أعرفه.

- إنّه لريمون كونو.

- لم أسمع عنه قط. جيّد، أنت الآن تعرف أين يمكن لك أن تجدني.

- بالطّبع.

- تعال لمشاهدة «النهر الهائج» لو كان لديك متّسع من الوقت. واجلب صديقةً معك.

- إلى اللقاء يا أبي.

- إلى اللقاء يا بنيّ.

اثنا عشر

أدخل مع كريستيان إلى الماخور مع أول خيوط المساء. معظم الفتيات يجلسن هناك يشربن الشاي أو يستمعن إلى مسابقةٍ بجوائز مالية في الراديو. المسابقة هي تخمين الأسعار الدقيقة لبعض المنتجات.

تقترب منّي فتاةٌ وتطبع على وجهي قبلتين ثمّ تسألني عن اسمي وعن مهنتي فأقول: «جاك، مدرّس».

أردّ لها السؤال باضطراب.

«عاهرة». تجيب مبتسمة.

نصعد إلى غرفتها، لها ملامح السكّان الأصليّين كمعظم الفتيات في هذه المنطقة.

يُقال إنه ثمّة فتياتٌ ألمانيات في ماخور «فروتيّار[1]».

لها غرّة ساطعة على جبينها، يغلب عليها طابعٌ بدائيّ، عظام وجهها جاحظة وابتسامتها مرتاحة لا يشوبها إحساسٌ بالهم. إنّها شابّةٌ قويّة، ربّما تغدو سمينة في غضون سنين قليلة، لكنّها ليست كذلك الآن.

---

(1) فروتيّا: مدينة في جنوب تشيلي. (المترجم).

في غرفتها الصغيرة موقدُ غاز صغير. تغلي فوقه إبريقَ شايٍ وتضع فنجانين في كلٍّ منهما ظرف شاي «ليبتون».

على السّرير بطّانية حيكت بطراز «تشيلوييه[1]» سميكة وخشنة كجلد حيوانٍ ما.

- هل ترغبُ في بعض الشاي؟

- بالتأكيد، شكراً.

تتأمل حذائي وهي تحرك ظرف الشاي في الماء المغلي، ثم توجّه نظرها إلى ربطة عنقي.

- في إمكانك البدء في خلع ملابسك.

تنهض وتقترب بنفسها لفك عقدة ربطة العنق، وحين يظهر عنقي تترك عليه قبلةً رطبة. وأنا بدوري أخلع الحذاء وأدفع به بقدمي تحت السرير كما أفعل دائماً، هو ليس حذائي بالأساس. إنه حذاء والدي ذو القياس الكبير نسبيّاً، وقد أورثني إيّاها عندما بدأت في ارتداء ملابسَ أكثر رسميّة.

- الجو بارد!

- لا يا عزيزي، أنت فقط متوتّرٌ بعض الشيء.

- أنا؟ متوتّر؟

- هاك.

أشرب من الفنجان على عجلٍ وأحرق لساني، وتنفخ هي الشاي في الملعقة قبل أن تشرب منها.

- وما الذي تدرّسه يا أستاذ؟

- قليلٌ من كلّ شيء، لكنّني أفضّل الأدب والتاريخ.

---

(1) تشيلوتيه: نسبة إلى أساطير سكّان أرخبيل تشيلوييه في جنوب تشيلي. (المترجم).

- ماذا عن الجغرافيا؟

- الجغرافيا أيضاً.

- «أنا أعشقها»، تقولها بثقة وهي تنفخ الشاي وتشرب مصدرةً صوتاً حادّاً، «أعرف سائر البلدان وعواصمها، ألفظ أسماءها فأطيل التخيّل في نفسي: كيف ستكون كلّ منها يا ترى؟».

- بوليفيا؟

- هذه سهلةٌ جدّاً: لاباس.

- إسبانيا؟

- سهلة أيضاً: مدريد.

- تشيكوسلوفاكيا؟

تعض الفتاة إظفرها لفترةٍ لا بأس بها، تنظر إلى السقف ثم إلى الحصيرة على الأرض، تتّجه إلى الشباك وتسند جبينها على زجاجه ناظرةً إلى الشارع.

- لا أعرف هذه.

تنزع عنها ثوبها الخفيف بحركةٍ احترافيّة وتقترب لتلمسني. تتصرف الآن بجديّة حاسمة، تمدّدني على السرير وتنزع ملابسي بعد أن خبأتني تحت غطاء السرير. تجلس القرفصاء فوقي.

أصل إلى النشوة بعد ثلاث أو أربع حركات منها.

- سيتوجّب عليك دفع أجرة الساعة كاملةً.

- حسناً، لا عليكِ.

- شعرت بالمتعة؟

- أجل، بالطبع.

ترفع غطاء السرير عني وتلفّه حول نفسها كعباءة، تطلق فجأةً ابتسامةً عارمة.

- اسألني مجدّداً.

- تريدينه سهلاً أم صعباً.

- سهل.

- فرنسا.

- باريس.

- جيّد جدّاً. (بالفرنسية).

أقولها وأحس أن جزءاً من سائلي المنوي قد تسرب من جوفها منتشراً فوق معدتي.

- هل تتحدّث الفرنسيّة؟

- بكلّ طلاقة، إن والدي من باريس.

- وهل تراه أحياناً؟

- لا، إنّه في فرنسا.

أنزلها من كتفيها نحوي وأقبّلها في فمها، عندئذٍ أشعر أنّني الآن للمرة الأولى جزءٌ من اللعبة، لأنّ كل ما أقوم به حتّى اللحظة هو الإصغاء لإملاءاتها.

- قل لي شيئاً بالفرنسيّة.

- سهلٌ أم صعب؟

- سهلٌ وطويل. بما أنّ عليك دفع ثمن السّاعة في كل الأحوال.

- حسناً. مقطعٌ شعريّ؟

- هيّا.

أصمت برهةً لكي أستجمع السطور كاملةً في رأسي قبل أن ينطق بها لساني. في سقف الغرفة هناك بقعةٌ على شكل سمكة.

—Ah, pauvre père! Aurais-tu jamais deviné quel amour tu as mis en moi.

Et combien j'aime à travers toi toutes les choses de la terre.

«Quel étonnement serait le tien si tu pouvais me voir maintenant.

«À genoux dans le lit boueux de la journée

«raclant le sol de mes deux mains

«comme les chercheurs de beauté!

تنهض الفتاة وتمشي نحو المغسلة فتمسح نفسها بمنديلٍ رطب.

– لم أفهم كلمةً ممّا قلت. في السينما يحدث معي الأمر نفسه؛ لا أقدر على قراءة الترجمة أسفل الشاشة، فهي سريعة للغاية.

– إنّها قصيدةٌ للأب.

– كتبتها أنت؟

– لا، لكنّني من ترجمها. تستطيعين إيجادها في الملحق الخاص بصحيفة أنغول.

– وماذا تقول القصيدة؟

– «آهٍ يا أبتاه المسكين، لو أنّك تخمّن يوماً أيّ حبّ زرعتَه فيَّ... وكيف أعشق من خلالك كلّ ما هو موجودٌ في الأرض». كتبها رينيه غي كادو.

– تبدو راغباً في أن تكون أنت من كتب هذا الشعر!

– لم أكن لأستطيع كتابة قصيدةٍ كهذه، لست سوى معلّمٍ بسيط.

- أجرة السّاعة خمسةُ آلاف بيزو لو سمحت.

أرفع سروالي وأضع على طاولتها الصغيرة النقود الورقيّة الرطبة التي أقرضني إيّاها الطحّان.

تمسح هي غرّة شعرها بيدها بعد أن بلّلتها بالماء.

- سأعود الآن إلى كونتولمو، يخرج القطار بعد ساعة.

- إن عدتَ ثانية سأعتني أنا بك. أدعى رايّين. وينادونني لونا[1].

- ولِمَ؟

- لأنّني أمضي وقتي مع القمر، أنظر إليه دوماً، ولأن لي وجهاً يشبه القمر، لا أعرف السبب لكنّ الجميع يناديني هكذا. ماذا عنك؟ ماذا يناديك الآخرون؟

- أستاذ.

- فقط؟

- أستاذ فقط.

- هل تضع درجات عالية للأولاد؟

- لم أتسبّب في رسوب طالبٍ في حياتي.

- كم تضع لي في الجغرافيا؟

تبتسم وقد قفزت أسنانها إلى الأمام من فمها العريض.

- «روسيا؟». (أسأل مجدّداً).

- «موسكو» (تجيبني وقد اتّسعت ابتسامتها أكثر). «قل لي، ما هي علامتي؟».

- سبعة.

---

(1) Luna: قمر بالإسبانية. (المترجم).

- أحقاً تعطيني سبعةً في الجغرافيا؟

- من دون أي شكّ، العلامة الكاملة.

- سأخبر الفتيات بذلك.

- حسناً إذاً.

تمد يدها برسميّة، فأصافحها وأخرج رويداً رويداً من الماخور.

ثلاثة عشر

ما زال أصحاب الماخور يحافظون على مكانٍ لربط الخيول قرب الباب. هناك التقيت بالطحّان يتثاءب.

- كيف جرى الأمر؟

- بشكل جيّد.

- هل كانت الفتاة شهيّة؟

- كانت كذلك، كريستيان.

- عن ماذا تحدّثتما؟

- بعض السخافات ليس إلّا. عنّي وعنها، كيف جرت أمورك أنت؟

- لم يكن هنالك حديث، كانت فتاةً قليلة الرغبة في التواصل.

نبدأ السير في الطريق الترابيّة نحو محطّة السكك الحديدية، يظهر طرف القمر بين السحب الداكنة لكنّها لا تُمطر، الجو بارد.

- إذاً لم تتحدّثا عن أي شيء؟

- كلمتان أو أكثر قليلاً. تخيّل أنّها سألتني عن وصفةِ صناعة الخبز.

- موضوعٌ شيّق يا كريستيان. قل لي ما هي وصفة صناعة خبز الباغيت؟

- الوصفة نفسها التي كان يستخدمها والدك.

- وما هي وصفةُ أبي؟

- هل تستهزئ بي الآن؟ أتريدني حقاً أن أقول لك الوصفة الآن؟

- لا يوجد شيءٌ في العالم يعنيني في هذه اللحظة أكثر من معرفة وصفة خبز أبي.

- كيلوغرامان من الطحين، كأسٌ ونصف الكأس من الماء الدافئ، مئة غرامٍ من الخميرة، ملعقتان ونصف من الزبدة، ثلاثة كؤوسٍ من الماء وملعقةٌ كبيرة من الملح. هل أنت راضٍ الآن؟

أتتبّع لبرهةٍ تموّج القمر في تلك السماء الممزّقة إلى أن أتعثّر بحجر على الأرض فتسقط حقيبتي مني، ألتقطها وأنفض عنها التراب ضارباً إياها على أحد أفخاذي.

- قل لي كريستيان. إذا ما رمى أحدهم نفسه من أعلى أشرعة طاحونتك الهوائيّة، هل سيموت؟

- إذا ما فعل أحدهم حماقةً كهذه فهو على الأرجح سيكسر عنقه.

أربعة عشر

يجلس سائق القطار في القاطرة وهو يصارع البرد وقد وضع مدفأةً بين قدميه، يغطّي جسده مرتدياً «بونتشو[1]» مصنوعاً في منطقة أراوكو[2].

يمد يده مقدّماً لنا القهوة من ترمسه، فنشرب القهوة في غطاء الترمس.

يقول إنّ علينا الانتظار حتّى الساعة الخامسة لكي ينطلق القطار، الوصول إلى كونتولمو سيكون في تمام السابعة.

لديه برنامج اليوم كاملاً، الفطور في الساعة الثامنة ثم قدّاسٌ الكنيسة في التاسعة، في الساعة العاشرة ستكون هناك مباراةٌ لكرة القدم في تلك الأرض القاحلة التي تملكها عائلة فييرا غايّو وسيلعب فيها فريق ناحية بيليكو ضد فريق كونتولمو، الغداء في الساعة الواحدة ظهراً وبعدها مسلسل عطلة نهاية الأسبوع الإذاعي في الساعة الثانية، ثم القيلولة في الثالثة وأخيراً في الرّابعة على قطاره العودة مجدّداً إلى أنغول.

يتملّكه الخوف من أن تقوم إدارة السّكك الحديدية في تشيلي بإلغاء خطّ القطار هذا بسبب قلّة الزبائن، ولم يتبقَّ له سوى ثلاث سنوات حتّى يصل سنَّ التقاعد. في سجل الخدمة الطويلة تلك، لا وجود لحوادثَ مثيرةٍ

---

(1) بونتشو: رداء تقليدي في أمريكا الجنوبية يُلبس في العنق ويغطي الجسد. (المترجم).
(2) أراوكو: منطقة في وسط تشيلي. (المترجم).

للاهتمام باستثناء تلك المرّة التي عبر فيها عجلٌ صغيرٌ سكّة القطار. وقد وُجِّهَ وقتها إنذارٌ إلى صاحب الحيوان المنحوس، ولم يكن من هذا الأخير إلّا أن تبرّع به طواعيّةً إلى حفل شواءٍ أقيم بعد الحادثة بيومٍ واحد.

ينطلق القطار أخيراً، هنالك ثمانية أشخاصٍ في مقطورتنا، كل شيءٍ فيَّ يرتجف من شعري إلى أخمص قدميَّ، القمر يمضي سريعاً حرّاً في السماء، أو أنّه وهم السفر السريع.

تصطك أسناني حتى تكاد تتكسر.

يقع كتاب «زازي في المترو» من بين ركبتيّ.

يضع كريستيان يده على جبيني وبالكاد أسمعه يقول:

- ويلاه! ستنفجر من شدة الحمّى.

خمسة عشر

يوم الأحد أحتسي عدّة ليترات من شراب الليمون الساخن، وأتناول حبّة أسبيرين كلّ أربع ساعات. تغيّر أمّي الشراشف التي أبلّلها بالعرق ثلاث مرّات.

يمرّ بعض الصبية من المدرسة في الحي ويصرخون قرب نافذتي لإخباري أن فريق كونتولمو قد فاز بالمباراة بنتيجة واحدٍ لصفر. نحن الآن نتصدّر دوري مايّيكو[1].

أرغب في استكمال قراءة الرواية، لديّ شك في أنّني سأحتاج إلى المال قريباً، والسبيل الوحيد لجني هذا المال سيكون في إكمال الترجمة. يجب عليَّ البحث عن بعض الكلمات ولا تقوى عيناي على رؤيتها في معجم لاروس.

هذه الحمّى تكشف لي ما لم أكن لأستطيع استشرافه، هي جملةٌ عليّ تدوينها لكيلا أنساها لاحقاً، أكتب بخطّ يدي على ورقة أجدها بالقرب من دفتر «يوميّات الحياة»، أكتب لأوغوستو غوتييريث: «ليست الكلمات ملتبسة المعاني، عالمنا هذا هو من يشوبه اللبس. أمّا الكلمات، فهي دقيقة».

---

(1) Malleco مايّيكو: إحدى المقاطعتين اللتين تشكّلان جنوب تشيلي (المترجم).

ماذا سيكون أو ماذا يكتب غوتييريث في دفتره يا ترى؟

أفتح شبّاك نافذتي الصغيرة فأجد أشرعة طاحونة كريستيان واقفة لا تتحرّك.

الطحّان نائم.

وصفة الخبز...

خبز الباغيت الفرنسي...

ستة عشر

مرّ يوم الاثنين بسرعة. ووفقاً لوالدتي فإنّي كنت أتأوّه ألماً كامرأةٍ تلدُ طفلها وأنا مستلقٍ على سريري بعينين تهذيان، وواظَبت هي على تقديم الأسبيرين وعصير الليمون الساخن لي. أمّا في الليل فأعدّت حساء الدجاج.

وصلت رسالتان في اليوم نفسه، واحدة منهم من كريستيان وقد وضعها في ظرفٍ مائلٍ إلى اللون الأصفر وفي داخله ملاحظةٌ وبطاقةٌ بريديّة.

تقول الرسالة:

بالنسبة إلى أبيك، فقد وصلتني اليوم هذه البطاقة البريدية منه قادمةً من باريس. وأمّا بالنسبة إلى موضوعك، فقد كنت أنظر من أعلى الطاحونة اليوم نحو الأرض وأستطيع أن أجزم أنّ من يرمي نفسه من هذا العلوّ سيتبعثر إلى أشلاء، لا شيء يستحقّ أن يقوم المرءُ بفعل كهذا، لا سيما إن رسم الله له طريقاً أو نهاياتٍ أخرى، وإنّ أفضلها هو أن يكون لك أحفادٌ وأن ينجب هؤلاء أحفاداً وأن تكبر العائلة معك حتّى تموتَ في سريرك محاطاً بهم وبالإيمان الكامل كالرهبان... نصيحةٌ يقدمّها لك رجلٌ وحيد لا قريب له فاسمعها.

على البطاقة صورةٌ لرسمٍ تظهر فيه فتاتان ترقصان حول عمودٍ حديديّ وقد كُتب اسم الرسّام على الوجه الخلفيّ: ديغاس[1]. أمّا الباقي، فهو فارغٌ وصامت.

الرسالة الثانية من غوتييريث:

أستاذي العزيز

لقد تحصّلت على الرسالة التي كتبتها تيريسا لك، يبدو أنّها أخذت تلك الكلمات من كتابٍ ما، تقول إنّك مميز جدّاً وإن لك نظراتٍ ساحرة، وإنّك حينما تنظر إليها «تشتعل طروادة». لا أعرف ما معنى هذا، لكنّني متأكّد من أن تيريسا ستكون في غاية السعادة إن أنت قدمتَ إلى حفلة يوم الجمعة.

خدمة البريد في تشيلي رائعة، فقد وصلتني تحويلة ماليّة من خالي ماتيو الذي يعيش في أنتوفاغاستا[2] بقيمة عشرين ألف بيسو، لذلك سنذهب السبت المقبل إلى أنغول على حسابي يا أستاذ، حتّى لو كان الرّعد أو المطر يهيمنان على السماء.

في صباح الثلاثاء كانت الحمّى قد تبخّرت تماماً من جسدي، شعرت بالنشاط واستطعت تمييز زقزقة وتغريد سائر العصافير والطيور في الحقل المجاور. سأتفرّغ يوم الإجازة لاستكمال «زازي في المترو». أتلمّس ذقني الخشنة وأقرّر عدم النظر إلى المرآة وكذلك عدم الحلاقة. إن ظهرت غداً بهيئة الخارج عن القانون هذه في المدرسة، فلعلّ الأولاد سيهابونني ويتوقّفون عن رشق قطع الطبشور على اللوح عندما أدير ظهري لهم.

---

(1) ايدغار ديغاس (1834-1917): رسّام فرنسي. (المترجم).

(2) أنتوفاغاستا: مدينة ساحليّة شمال تشيلي (المترجم).

في الليل تحضّر أمي كميةً أخرى من حساء الدجاج، هذه المرة مع قطعتين من الخبز.

- لقد استيقظ كريستيان من سكره.

ثم تهمّ بالمغادرة فأستوقفها ممسكاً معصمها ومجبراً إيّاها على الجلوس على طرف السّرير، فترمقني بنظرة مذعورةٍ وفضوليّة، ثم لا تلبث أن تنفض الملاءة لتتأكد من أنّها جافة تماماً، فهي لطالما طبّقت قواعد الفنادق الصارمة في البيت.

- ما الذي تعرفينه عن أبي وتخفينه عنّي يا أمّي؟

- إنّه في فرنسا.

- ولماذا ذهب إلى هناك؟

- جميع الرّجال لديهم ميول البحّارة يا بني، إنّهم يعشقون اكتشاف الأماكن. ثم إن أباك هو أصلاً من هناك، أليس كذلك؟

- وماذا عنّي؟ أو عنكِ أنتِ؟

تداعب ذقنها للحظةٍ ثم سرعان ما تبدو حركتها برمّتها أشبه برقصةٍ متقنة. إنّها سيّدة مشرقةٌ وغائبة، جمالها منحوتٌ في قالبٍ من البؤس.

- ها نحن يا بني. أليس صحيحاً؟

أحرك الحساء بالملعقة بيدٍ وبأخرى أمسك معصمها كي لا تذهب. أقضم لقمةً من خبز الطحّان بشهيّة متقطّعة. إنّني جائعٌ كمن لم يأكل منذ قرون طويلة، كأن الشعر الذي نما حول فكيّ يغذّي فيّ جرأةً غير متوقّعة.

- أين عسى بيير يكون يا أمّاه؟

- في باريس.

- ولِمَ؟

- إنّها مدينته، هذا طبيعيّ.

- وعندما رحل... ألم يكن يحبّك؟

- ولِمَ عساه لا يحبّني؟ بالتأكيد يحبني، ويحبّك أنت كثيراً. لكنّ باريس...

- هل يحب السينما يا ماما؟

- عندما كنّا في سانتياغو كان يذهب إلى السينما على الدوام، يُقال إن التلفاز سيصل إلى تشيلي في غضون سنين قليلة، آمل أن تتوفّر لدينا بعض النقود لشراء واحدٍ يومها.

أنظر إليها كما لم أفعل قط، ومن دون لمسها أحاول إزاحة السنين والرّتابة عنها، فأرى امرأة جميلة وضعيفة، شابّةً على نحوٍ غريب، أشبه بامرأة مسنّة توحي بالشباب، بجاذبيّة قد أُتلفت.

- كان أبوك -قبل أن أنجبك- يقارنني بممثلات فرنسيّات وإيطاليّات. فكان يشبّهني سنةً بالممثلة الفرنسيّة ميلين دومونجو، وأخرى بالإيطاليّة بيير أنجيلي. وأخيراً صرت عجوزاً وتوقّف عن مناداتي بهذه الأسماء.

- أنت أجمل من كل الممثلات.

- هل ستذهب إلى المدرسة غداً؟

- بالطبع يا أمي، لقد شفيت من الحمّى تماماً.

- هذه الحمّى كادت تودي بك يا جاك، لن أسمح لك بعد اليوم بالذهاب إلى أنغول مع كريستيان.

- كانت غلطتي، فأنا لم آخذ المعطف السميك معي.

- أردت أن تبدو كأبطال الأفلام.

- أجل يا أمي، لن أكرّرها أبداً.

لم أفلت يدها بعد، لدي كلّ ما أود أن أقوله لها من كلمات، لكنّ ومع الأسف الشديد لن يفيد التفوّه بأيّ منها.

- ماذا ستعلّم الأولاد غداً؟

- بعض التاريخ وبعض الجغرافيا.

- عن ماذا؟

- سأحدّثهم عن النفق المؤدي إلى لونكيماي[1].

- نفق الجذور؟

- أنا متأكّدٌ من أنهم مرّوا منه مراتٍ عديدة من دون أن يعرفوا أن طوله يصل إلى أربعة آلاف وخمسمئة وسبع وثلاثين متراً، أو أنّ بناءه تطلّب استخراج مئة وأربعة وثمانين ألف مترٍ مكعّبٍ من الصخر، وأنّه لتحقيق ذلك اضطروا إلى استعمال مئة وخمسة وسبعين ألف كيلوغرام من الديناميت المتفجّر، وأن تلبيسه لاحقاً احتاج إلى مئتين وأربعين ألف كيسٍ من الإسمنت.

تحدق أمّي فيَّ ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة توحي بالفخر بكمّ المعلومات التي أدلي بها. وأتذكّر الأغنية الفرنسيّة: «إنّني أجوب العالم» والتي غنّاها ايف مونتان.

- في أيّ ساعةٍ تريد الفطور غداً؟

- في السابعة.

- في السرير أم على الطاولة؟

- على الطاولة.

---

(1) نفق بني في عام 1939 ويصل بين ناحيتيّ لونكيماي وكوراكاوسين في تشيلي. يسمّى أيضاً نفق الجذور. (المترجم).

سبعة عشر

خلال الأسبوع، تصرّف الأولاد بطريقة نموذجيّةٍ غريبة، كما لو أنّهم خرجوا للتو من القصص والحكايات. يجلبون لي التفّاح فأفركه بالجزء الأمامي من معطفي لكي ألمّعه.

ولكيلا يسألني غوتييريث عن أنغول، أقرّر أن أعطيهم درس إملاءٍ طويل يبقيهم جالسين في مقاعدهم. أضع لهم كلماتٍ صعبةً مثل: «انضباط»، «مَنْفَذ»، «وَقْع».

ثمانية عشر

في منتصف النهار يوم الأربعاء، أنظر من نافذة ورشة الخياطة فأبصر إيلينا، الأخت الأكبر لأوغوستو غوتييريث وهي تجرّب قميصاً تريد تضييقه. تقول إنّها، لحسن الحظ، استعادت رشاقتها، وإن الناس في الجنوب يأكلون الكثير من الجبن، وإن الحليب هنا مشبعٌ بالدهون. وتشير إلى أنّها الآن تتعشى دجاجاً منزوع الجلد وخضاراً وكميّات وفيرة من عصير البقدونس.

تنظر في المرآة ثم تشكو أن وجنتيها تبدوان صحّيتين أكثر من اللازم، تريد لعظام وجهها أن تبدو بارزةً بعض الشيء، ولا مانع من بعض الشحوب في الوجه كذلك الذي يميّز وجه غريتا غاربو[1] في فيلم «القبلة».

تريد تضييق القميص ليُظهر خصرها جيّداً، وأن يُعجب الرجل الذي سيدعوها إلى الرقص، وحين يشد يده حول خصرها يرتفع القميص قليلاً فيسمح له هذا بتلمّس جلدها.

أنسحب إلى السّاحة قبل أن تكتشف أمري، وأوافق أن يقومَ أحد طلّابي الذي يعمل في مسح الأحذية هناك بتمرير قماشته على حذاء أبي.

---

(1) غريتا غاربو (1905-1990): ممثلة أمريكية سويديّة الأصل. (المترجم).

في صحيفة أنغول تمّ الإعلان أنّه وابتداءً من الشهر القادم ستُنشر وبالتسلسل طوال الشتاء مقاطع من رواية ريموند كونو العظيمة «زازي في المترو».

لم يذكروا طبعاً أنّني لم أنتهِ بعد من ترجمة الكتاب، أو أنّ السلفة التي وعدوني بها لم تدفع لي هي الأخرى. لم يُذكر حتّى اسمي كمترجمٍ للرواية.

أودّ رؤية اسمي يوماً مكتوباً بحروف الآلة الكاتبة المقولبة تلك، فبعض الشهرة ستمنحني وقاراً أمام تيريسا.

وفقاً لغوتييريث، سيتوجّب عليّ دعوتها للرقص، الاقتراب منها حدّ الملامسة ثم الالتصاقَ بها وإطلاق زفيري في أذنها. ليس عليّ التفوّه بأية كلمة، فالفتاة تحفظ جميع أغاني الإذاعة كما لو كانت مشغّلة أسطوانات الدانوب الأزرق.

ينوّه الصبي: اضغط عليها بذراعيك فتغنّي، عندها يا أستاذ، سأقوم أنا بإطفاء الأضواء، وفي تلك اللحظة تقبّلها أنت مستخدماً لسانك.

أستفسر منه عن سبب مساعدتي في غزو شقيقته، فيجيب أنّه عليّ ردّ هذا الجميل، فهو يحتاج إلى شخصٍ بالغ لكي يستطيع دخول الماخور في أنغول، وأنّه ليس في هذا العالم شخصٌ غيري يستطيع إنجاز هذه المهمّة. يخبرني وهو يلمّع نظّاراته بأسفل قميصه أنّني أنا أستاذه وصديقه. أنا من علّمه كل ما يعرفه في حياته، ابتداءً بانتصار جيوشنا في يونغاي[1] عندما قام بطلنا مانويل بولنيس بإحباط نوايا المارشال البوليفي سانتا كروز في توحيد البيرو وبوليفيا، وانتهاءً بتدخين السجائر من دون سعال.

---

(1) يونغاي: موقعة دارت في قرية يونغاي البيروفية بين قوات البيرو المتحالفة مع بوليفيا والجيش التشيلي عام 1839. (المترجم).

- ليلة الجمعة، ستكون ليلتك يا أستاذ جاك، وأمّا ليلة السبت ستكون ليلة خادمك المطيع أوغوستو غوتييريث.

يطلب منّي تلمّس نتوءٍ في جيب بنطاله.

- إنها العشرون ألف بيزو الذي أرسلها ماتيو، أحملها معي كي لا تضيع منّي، القطار إلى أنغول ينطلق في الساعة الرّابعة.

«في الساعة الرّابعة». يكرّر مستبقاً نصره القادم.

تسعة عشر

جاء يوم الحفل، استخدمتُ كسائر الرجال من حولي مثبّت الشعر، كما لو كان الأمر قانوناً يسري علينا جميعاً. الجوّ ضبابيٌّ والطقس في القرية أصبح معتدل الحرارة فجأةً. إنّه صيف سان خوان[1] كما يطلقُ عليه الناس هنا.

يقف غوتييريث بالقرب من مشغّل الاسطوانات من طراز 45 آر بي إم. أقدّم له هديّته وأبصر أغلفة الأسطوانات التي ستسقط في مشغل الأسطوانات تباعاً عبر الأنبوب الأوتوماتيكي.

أغنية «الصراحة» للمغني لوتشو غاتيكا، أغنية «نسير تحت المطر» لجوني راي، أغنية «ديانا» لبول أنكا، أغنية «الفندق الحزين» لالفس بريسلي، وأغنية «التانغو الأزرق» لأوركيسترا هوغو وينيرهولتر.

يربت أوغوستو بضع مرات على كتفي متواطئاً ثم يفتح الهديّة، وألمح إيلينا غوتييريث بقميصها المزركش الجديد وهي ترفض محاولة رجلٍ لإشعال السيجارة التي تضعها بين شفتيها، هذا الرجل هو صاحب متجر بيع الأدوات في المدينة.

---

(1) صيف سان خوان: مصطلح يطلق على ظاهرة مناخيّة في أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى تميل فيه درجات الحرارة إلى الاعتدال بعد أيّامٍ من البرد. (المترجم).

بعد إصرار الرجل تنفخ إيلينا عود الكبريت فينطفئ وتتلطخ سيجارتها ببعض اللعاب المتطاير، تنظر باتّجاهي حينها عن سابق إصرار ثمّ تقترب تيريسا غوتييريث منها وتنظران إليّ قبل أن تتلفّتا ضاحكتين.

لا يخفي أوغستو خيبة الأمل التي سببتها هديّتي له.

– كرّاسٌ بِقِفْل؟! يتمتمُ من دون أيّ حماس.

– في استطاعتك كتابة أشيائك الخاصّة فيه.

– أيّ أشياء؟

– أحداثٌ قد تحصل معك.

– لن يحصل شيءٌ من هذا يا أستاذ.

– لعلّ قصة ما ستبدأ أو أمراً ما قد يحدث، حينها ستندم إن أنت لم توثّقه.

– أعطني مثالاً عمّا قد يحدث.

– مثلاً، الرحلة إلى أنغول، أودّ أن أعرف وبالتفصيل كلّ ما ستفعله هناك.

يمدّ يده مشدودة الأصابع لكي نتصافح كشركاء مؤامرة. تظهر إيلينا غوتييريث ومعها كأسٌ ممتلئةٌ تضعها على يميني من دون أن تبتسم وتقف بجانبي واثقةً من نفسها. تصدح أغنية «جيزِبل» لفرانكي لين.

– «كوبا ليبريه[1] مع رون جامايكا!».

تقول لي مفصحةً عن محتوى الكأس.

– إنّه أفضل من رون الميتيخاس.

---

(1) كوبا ليبريه: أي كوبا حرّة وهو اسم يطلق على مشروب الرّم في الدول التي تتكلّم الإسبانية. (المترجم).

- هل ترغب في الرّقص؟

أنظر فأرى أختها تيريسا تتأملني وهي تحتسي زجاجة كوكا-كولا بواسطة قشّة.

- في الواقع كنت أفكّر في الرقص على أغنية هادئة مع تيريسا.

- جيزِبل ليست هادئةً إلى ذاك الحدّ، إنّها مزيجٌ بين الفوكستروت[1] والتانغو. فلنرقص!

أضع كأسي بجانب مشغّل الأسطوانات وأمسكها من خصرها المنحوت، تستجيب هي لحركة يديّ وخطواتي ببراعةٍ لامعة.

تيريسا تضع قشّة الشرب بين أسنانها العلوية، وتنظر إلينا ونحن نرقص وتقرع بأصابعها على الزجاجة الفارغة.

يطفئُ غوتييريث الضوء المتدلّي من السقف ويترك مصباحين خافتين في زوايا الصالون. هنالك نحو اثنا عشر شخصاً، جميعنا نرقص باستثناء غوتييريث.

أراه يقترب من المائدة ويغرس شمعة إضافيةً في طبقة الكريما التي تغطّي قالب الحلوى بعد أن كان والده قد وضع خمس عشرة شمعة.

تسحب إيلينا يدها من كتفي وتضعها على قلبها هامسة:

- منذ مدةٍ وأنا أنظر إليك يا جاك.

- لكي تسخري منّي.

- كنت أضحك فقط لكي أُخفي نفسي.

- ما الذي تودّين قوله؟

---

(1) الفوكستروت: رقصة ظهرت أوائل القرن العشرين في الولايات المتّحدة على أنغام موسيقا الجاز. (المترجم).

- أنا وأنت لدينا شيءٌ مشترك. سرّ!

- لا يخطر في بالي الآن أيّ سرٍّ قد يكون بيننا.

- إذا قلت لك اسماً، هل تعدني بالكتمان؟

أشعر بيدها المتعرّقة وهي تلمس جلدي، تنتابني رغبةٌ في إزاحتها ومسح أثرها بسترتي لكنّها تمنعني بعنف وتشدّ عليّ بشيءٍ من الهلع.

- ثِق بي.

- حسناً.

ترفع نظرتها المهيبة شيئاً فشيئاً وتبوح بالاسم من دون أن تتنازل عن ذاك الكبرياء الواضح في وجهها.

- إميليو.

ثم وبعد ثلاث ثوانٍ تغرس رمحاً آخر في رأسي مكرّرة.

- إميليو، كإميليو زولا.

تصدح أغنية «من الأسنان فخارجاً» لفرقة لوس كواترو آسيس، وتنغرز أظافري في نقشة قميصها، أنظر إلى كأسي وقد ذابت مكعّبات الثلج فيها، لكنّي لا أقوى على التقاطه. يمتلئ فمي باللعاب ولا أستطيع ابتلاعه.

أنظر إلى أقدام الراقصين من حولي، الفتيات يلبسن أحذيةً ذات كعوبٍ عالية والشبّان قد أغرقوا أحذيتهم بالملمّعات الصناعيّة.

يقف والد الأخوة غوتيّيريث في عتبة الصالون، يشد حمّالة بنطاله ساحباً إيّاها أمام سترته.

أبتعد عن إيلينا، أفتح الباب وأخرج إلى بهو المنزل الخلفي. ينبح كلب البيت فأتجاهله. وتتبعني خارجة.

- لا بدّ لنا من خوض هذا الحديث يا جاك، أعتذر إن كنت قد جرحتك.

- لا بأس.

- هذه القرية صغيرةٌ جدّاً، والسرّ الذي أخفيناه طوال سنتين بات أكبر من تحمل إخفائه، ليس من مصلحة أحد أن يكشف هذا السر، ولهذا تواريت أنا عن الأنظار مدّة عامٍ كامل.

- من يعرف هذا السرّ غيرنا؟

- الطحّان.

- لماذا تركني طليقاً في أنغول إذاً؟ ألم يحسب حساباً أن ألتقي بوالدي هناك؟

- أنت تعرف أنّه رجلٌ سكّير، لكنّه لا يخلو من الحكمة في الوقت ذاته.

- أين تكمن حكمته تلك؟

- في أنّه اصطحبك إلى الماخور لكي ينسيك أختي.

- وما علاقة هذا بذاك؟

تمشي الفتاة بضع خطواتٍ نحو صنبور المياه، تفتحه ثم تضع جبينها تحت الماء المنساب منه، وتمسح بما يسيل عنقها بكلتا يديها. الظلام دامسٌ باستثناء ضوء خفيف يأتي من بيت الكلب الخشبي.

- ثمّة هنا في قريتنا برميل ديناميتٍ متفجّر يا جاك، فإذا ما أشعل أحدهم عود ثقابٍ بالخطأ سيطير كل شيءٍ متفجّراً في الهواء.

- وماذا بعد؟

- لا أريد لشقيقتي أن تعاني ما عانيته أنا مع أبيك.

- ولِمَ تركتِ إميليو عوضاً عن أن تعتني أنت به؟

- نحن في حفلة عيد ميلاد أوغستو، وليس الوقت ملائماً لمناقشة هذه القضايا.

- لست أنا من بدأ بإثارة هذه القضايا.

- بالطبع أنت من بدأ الأمر، بزيارتك الغبيّة تلك إلى أنغول. أنا أودّ أن أكون ملكةً لحياتي، وليس عبدةً لطفل أحدهم.

- إذاً أنت لا تحبّينه؟

- والدك أحبّك، ولكنّه تخلّى عنك على الرّغم من ذلك. أنت مدرس يا جاك، وعليك أن تعرف أن الحياة أكثر تعقيداً من مجرّد النظر ببساطة إلى مجرياتها.

- تلك المجرياتُ أبسط مما يمكن أن تتخيليه، أبي أحبّني وهجرني. هو يحبّ إميليو ولن يتخلّى عنه. معنى هذا أنني كلبٌ يتيم ليس إلّا، يا إيلينا.

- ينقصك النباح فحسب. (قالتها مبتسمةً).

تمسك بعقدٍ وترفعه من بين نهديها ثم تضع الصليب الصغير الذهبيّ بين أسنانها.

- هل ترينه من وقتٍ لآخر؟

- لا.

- أقصد والدي...

- كذلك لا. ليس هناك أي شيءٍ يا جاك، نمَت بيننا بعض المشاعر، وكان الأمر مغرياً بالنسبة إليَّ، أعني هذا الغموض في القرية، لم تكن أنت تعرف، لم يعرف به والدي، وأيضاً أمّك لم تكن على علمٍ بالأمر. لكنّ الواقع أفسد الأمر. كنت بطلةً لفيلم رومانسيّ ووالدك عاشقٌ رائعٌ في فيلمنا الذي لعبنا فيه أنا وهو دور الأبطال ودور الجمهور في الوقت نفسه.

- عاشقُكِ الرائع هذا يعرض الأفلام في سينما أنغول، يمضي السّهرات والليالي قابعاً في غرفة العرض حيث لن يربح قطعاً أيّ جائزة أوسكار.

- لا تظننّ أنّني لا أملك المشاعر، ينتابني أحياناً حزنٌ شديدٌ حيال إميليو.

- على هذا النحو فإنّ أبي أيضاً ينتابه الحزن حيالي.

(أبتلع ريقي).

يطفئون الأضواء...

- سيشعلون الشمع، ويغنّون أغنية العيد.

- وضع أوغستو ست عشرة شمعةً، من الأفضل أن تذهبي لمساعدته في إطفائها.

تمسك الفتاة صليبها، تسحبه من فمها وتضعها بين شفتيّ.

- احلف لي بالكتمان.

عشرون

في الصالون، يفتح أوغستو غوتييريث هديّة والده وهو يتمشّى متراقصاً مع شريكةٍ متخيّلةٍ على ألحان «التانغو الأزرق»، يسلّط ضوءاً متقطّعاً من مصباحٍ محمول باتجاه سترته الرّياضيّة الجديدة مقلّداً قاعات الرقص، يرتدي قميصاً يشبه بلونه وطرازه ذاك الذي يلبسه جايمس دين في فيلم «ثائرون من دون قضيّة».

نقترب من الطاولة ويعطيني الأب شرف تقطيع الكعكة بعد إطفاء الشموع مقدّماً لي السكين، وحينها يتنبّه إلى وجود شمعةٍ زائدةٍ فيزيلها ويرمي بها في صحنٍ جانبيّ.

الأب أسمر وضخم الجثة، ملامح وجهه أمريكيّة أصليّة إلّا أن السمنة قد غطّتها ولطّفتها بعض الشيء، يعطينا إشارةً بيده التي تشبه يدَ لاعب كرة السلّة بأن نبدأ الغناء.

عيناه تلمعان بسعادةٍ مبالغٍ فيها: فقد استطاع أن يكون أرملاً ناجحاً، وابنتاه جميلتان، ولا بد من أن يأتي شابّان مميزان من الغرباء فيتزوّجان بهما. ناهيك عن أن آخر العنقود صديق الأستاذ، وهذا سيمنحه مستقبلاً باهراً لا محالة وعلاماتٍ ممتازة ربّما تجعل منه أستاذاً هو الآخر.

عوضاً عن إغراق فمي بالكعكة الدسمة التي قدّمها لي أوغستو، أضع مكعّبات الثلج في كأسي وأتّجه نحو المرحاض وأنا أتجرّع الكأس بقوّة.

في الممرّ، وقبل أن أصل إلى باب المرحاض، ألتقي بتيريسا.

- هل تودّ الدخول قبلي؟

- لست مستعجلاً، ادخلي أنت فحسب.

ألاحظ أن تنفّسها ثقيل غير منتظم.

- سأبلّل نفسي قليلاً بالماء، إنّ الجو حارٌ في الداخل.

- كأسي متجمّدةٌ تقريباً. هل تريدين القليل؟

تأخذ الكأس، لكنّها لا تشرب منه، بل تمرّره على وجنتيها المشتعلتين.

- «يا للراحة!». تصيح مغمضة عينيها وهي تتماهى مع برودة الثلج في الكأس.

أقترب منها لأخذ الكأس، فأبصر أثار الرطوبة على وجنتيها وينتابني إحساسٌ شبيه بوضع شفتي على جلد وجهها.

- «عن إذنك». تقول منصرفة.

تدخل المرحاض، تغلق الباب وأسمعها وهي تعلّق القفل من الداخل.

أبقى أنا على الطرف الآخر من الباب، أنتظر دوري، ينظر الأب من المّمر ويلقي عليّ تحيّةً فرحة، فأرفع إبهامي مشيراً إلى أنّ كل شيءٍ على ما يرام.

بالقرب من الباب نفسه أسمع صوت فتح قفل الباب، أفسح المجال لتيريسا مبتعداً لكنّها لا تخرج، تنبض الشجاعة في داخلي فيبرز ذلك العصب في عنقي، أفكّ ربطة عنقي لأشعر أنني المسيطر على الوضع.

أفتح الباب وأدخل، لكنّني لا أرى شيئاً حولي بسبب الظلمة، فأقوم بتلمّس طريقي معتمداً على تلمس الأشياء من حولي.

أغلق الباب وأقفله، تيريسا متّكئة على المغسلة، تتنفّس بسرعة.

في الصالون تصدح أغنية «اللحظة السحريّة» للمغنّي بيرّي كومو.

أقترب منها، وكما لو كنت محترفاً، أمسك بزر قميصها، وأفتحه ببطءٍ شديدٍ عن قصد، أتذكّر صورة إيلينا وهي تقول: «ثمّة هنا في قريتنا برميل ديناميتٍ متفجّر». ويبدو أن الفتيل الآن يقبع في يديّ وفي لساني.

أجعّد شفتيها بأصابعي بلطفٍ وأبدأ بتقبيلها، أبتعد فتفتح هي زرّ قميصها الثاني، أتلمّس حمالة صدرها وقد أزالتها وعلّقتها على المغسلة. تظهر نهديها من دون استعراضٍ وعلى نحوٍ متواضع، إنّها ترتعد على الرّغم من محاولاتها لكي تبدو طبيعيّة.

- كتبتُ لك رسالةً يا جاك.

- لم تصلني قط.

- لأنّني لم أرسلها.

- ولِمَ لا؟

- لأن الرسائل تترك بصماتٍ خلفها، وما كتبته لك جدّي للغاية.

أضع يدي على بطنها، وأعض ذقنها بنعومة بينما تداعب هي شعري.

- قوليه لي.

- أريد أن أكون معك، لكن ليس هنا.

- هذا المكان الوحيد الذي يمكننا أن نلتقي فيه.

- لكنّه بيتي جاك. لا أريد أن أفعلها معك في هذا السّجن.

- نستطيع الذهاب إلى غرفة كريستيان، سيعيرها لنا.

- الطّاحونة مليئةٌ بالصراصير والجرذان.

الرّطوبة في بطنها تزداد وتخترق تنّورتها، ونحسّ كلانا بالبقعة عندما أسحب يدي.

- عليّ تغيير ملابسي.

ترمي حمّالة صدرها في حوض الاستحمام وتعيد إقفال أزرارها قبل أن تفتح الباب وتنطلق لتختفي في الممرّ.

ضوء الممر كافٍ لكي أرى نفسي بالمرآة. أقترب بعد أن جذبني تعبيرٌ غريبٌ لم أعتده في وجهي. أقول بالفرنسية:

- لقد غدوتُ عجوزاً!

عادت إليَّ اللغة الفرنسيّة التي صحبت طفولتي في زفيري الذي أطلقته على المرآة.

أتذكّر بطل «زازي في المترو» حين يستفسرون منه عن تجربته في باريس فيقول: «لقد غدوتُ عجوزاً».

- لقد غدوتُ عجوزاً.

ومع هذه الجملة تحديداً، اتخذتُ بعض القرارات.

واحد وعشرون

قرارات.

مثل معماريٍّ محموم، أرسم خطّةً دقيقة لما سأفعله يوم السبت القادم، في هذه الأثناء، تشطف مياه المطر المسائيّ حبات الغبار المترسّب في زوايا نافذتي.

وخطّة اليوم تقول:

أولاً: وضع الخطّة.

ثانياً: زيارة كريستيان.

ثالثاً: تناول الإفطار مع أمّي، وإقناعُها بأي ثمن.

رابعاً: نقود غوتيّيريث.

خامساً: إبرام اتفاقٍ مع غوتيّيريث، تعليماتٌ دقيقة، وبالتحديد: القطار.

سادساً: تيريسا.

سابعاً: النتائج، لو كان ثمّة أيّ منها.

في الطّاحونة ألتقي كريستيان، حليق الذقن على نحوٍ متقن، يضعُ على رأسه قبّعة الطهاة العالية والفخمة، ويرتدي معطفاً حديثاً من الكتّان

الأبيض الباهر يكاد يمنح الطحّان هيئة ربّان سفينة متألّق. لا يستعمل اليوم مئزره الأزلي المرصّع ببقعِ النبيذ الأحمر.

- لم أصنع الخبز السبت الماضي، والزبائن غاضبون! يخافون ألا تصلهم بضاعتي، لهذا سيأتون لأخذها من هنا. هذه الأزياء اشتريتها من أنغول. هل تعجبك؟

- وجدتها في ذات المتجر الذي يبيع البطاقات ذات الراقصات التي رسمها إيدغار ديغاس، أليس كذلك؟

يحمرّ وجه كريستيان، ثم يضع في كيسي المصنوع من القنّب ستّة أرغفة ساخنة من خبز مارّاكيتا، ملفوفةً بمنديل سماوي اللون مزركشٍ بورياداتٍ حمراء في الزوايا.

- نقود السبت الماضي كانت ديناً، وعليك سداده يا جاك.

- سأسدّد ديني فور حصولي على أتعاب الترجمة.

- لا بأس.

اثنان وعشرون

أستيقظ قبل أمي، أضع حبّات البنّ في المصفاة وأصبّ الماء المغليّ فوقها، أسخّن الحليب في وعاءٍ جانبي على الموقد. أقطع حصّتين من الجبن الذي لا يزال طازجاً ملفوفاً بورقٍ شمعيٍّ، أفرغ جرّةً من المربّى في إناء وأملؤها ببعض الماء محاولاً جعل الخليط متجانساً قدر استطاعتي.

تجيء أمي لتحضير الطعام، فتُفاجأ بأنّ كل شيءٍ بات جاهزاً. كانت قد غسلت شعرها في الحمّام ولفّته بمنشفةٍ زرقاء، تفوح منها رائحة الخزامى. تضع السكّر في قهوتها بعد أن أضافت الحليب، تحرّك القهوة بملعقة صغيرة وهي تنظر إليّ بريبة، وأنا أضع مرفقيّ على غطاء الطاولة وأسند ذقني براحتيّ يديّ.

- ماذا بك؟

- حياتكِ يا أمي.

- هل سنتحدّث عن حياتي؟

- أجل، ستخبرينني عما تشعرين به، وعما ينقصك أيضاً.

- إنّني بخير، لا ينقصني شيء.

- لكنّك لا تخرجين مطلقاً، غدت يداك شاحبتين من غسل الشراشف والأغطية.

- ليس في كونتولمو ما يدعو إلى الخروج.

- لكنّ في استطاعتك الخروج من القرية، يمكنك الذهاب إلى أنغول مثلاً.

- لكي أعود مصابةً بالحمّى كما حدث لك؟

- لديكِ معطفك الجلديّ.

- إنّه أفخم من أن أرتديه في أحياءَ كهذه.

تمضغ برويّة قطعة خبز الطحّان مع قطعة الجبن، وترتشف قهوتها بالحليب من دون إصدار أي صوتٍ.

أضع يدي في جيبي وأخرج منه الظرف.

- ما هذا؟

- إنها تذاكر سينما، سيعرض الفيلم اللّيلة.

- هل جننت! أذهب أنا إلى السينما!

- في سانتياغو كنت تذهبين دائماً إلى السينما، لطالما رويتِ لي قصص الأفلام، هل أصبتِ بالبكم الآن؟ كما لو أن الجرذان التهمت لسانك وقلبك؟

- وهل سأسافر ساعتين في القطار من أجل فيلم؟

أخرج من جيبي بطاقة الذهاب إلى أنغول.

- جاك؟

- أمي؟

- وماذا عن الحمّى؟

- ماذا عنها؟

- لقد طرحتك في الفراش.

تنظر إلى تذاكر السينما في يدي، ثم تنظر إلى تذكرة القطار في اليد الثانية، فتفرد العقدة التي تجمع بها شعرها وينطلق عبيرٌ يملأ المطبخ، أشرب من قهوتي وأبتسم.

- هل تخفي عنّي شيئاً يا جاك؟

- أجل.

- وما هو؟

- أفضّل عدم البوح به.

- لن أذهب إلى السينما إن لم تقل لي ما تخفيه.

أقضم شطيرتي من دون أن أزيح نظري عنها. ليس إبرام الصفقات مع أمّي بالأمر السهل، فمثلاً لو قلت لها ما أفكّر فيه فهذا لن يعني أنّها ستلتزم الوفاء وتذهب إلى السينما.

- أحتاج أن أكون وحيداً في المنزل الليلة.

- يقول الطّحان إنّك تنوي قتل نفسك.

- يا له من ثرثار!

- «إذا انتحرت سأقتلك». تقول مبتسمة.

تمرّر سبابتها على شفتيّ وكأنها تضع ختماً لوعدٍ ما.

- على العكس تماماً يا أمي، الأمر يتعلّق بفتاة.

- من القرية؟

- مممممم.

- هل أعرفها؟

- وهل هنالك من لا تعرفينه في هذا المكان؟

- هل هي جميلة؟

- إنّها كذلك.

- تيريسا غوتيّيريث؟

- هي بالفعل، أمي.

- وهل ستمارس الحب معك؟

نشرب القهوة لبرهةٍ من دون أن يقول أحدنا شيئاً للآخر، يطلق القسّ من الكنيسة أولى أجراسه السبعة.

- لا أعرف بدقة أمي، هذه الأشياء ليس في مقدوري استشرافها.

- ما الفيلم الذي سيعرضونه هذا المساء؟ أفلام «رعاة البقر»؟

- ليس من أفلام «رعاة البقر». هذا الأسبوع سيعرضون فيلماً لأنّا ماغناني وأنتوني كوين.

- عمّ تدور أحداثه؟

- رأيت الإعلان على الشاشة، إنه عن قصّة تجري في مكانٍ ناءٍ في الولايات المتّحدة. هو أرمل فتأتي هي لتحل محلّ زوجته الميتة، ويمضي هو الوقت في عقد المقارنات بين الاثنتين، وهكذا تقع هي في غرام رجلٍ شاب...

- وأين سأنام أنا في أنغول؟

أشعّة الشمس تتسلّل ببطءٍ فوق غطاء الطاولة الريفي وتلفح سلّة الخبز فتزيح أمّي المنديل الذي يغطّي الخبز لتعرّضه لهذه الأشعّة.

أضغط بقوّة على جفنيّ في محاولةٍ للسيطرة على كهرباء أعصابي.

أنتشل خبزة وأقسمها من دون مغزىً.

- «الله سييسّر الأمر». أقولها ببطء.

أو بالأحرى، أدعو الله.

ثلاثة وعشرون

اتفقت مع غوتيّيريث على اللقاء في ملعب المدرسة لكرة السلّة تمام الساعة العاشرة صباحاً، يظهر بنظّاراته الفضائية، مرتدياً بنطال جينز وحذاءً رياضياً.

أمرّر له كرة السلّة فيرميها، ويسجّل نقطة من المحاولة الأولى.

أفكّر في أنّه يوم حظّه.

نجلس معاً على جذعٍ في زاوية الملعب الصغير، وأقبل منه سيجارة «ريتشموند» يقدّمها لي على طريقة البالغين.

- هل جلبت معك ما طلبته منك؟

يخرج من جيبه العشرين ألف بيزو وقد لف النقود بمطّاطة صفراء.

ألتقط ثلاث ورقاتٍ منها وأخفيها في جيب بنطالي.

أحرّك كرة السّلة تحت قدمي اليمنى.

- هذا دين. هل تفهمني؟ سأعيد لك المال عندما أقبض أتعاب «زازي في المترو».

- لا عليك يا أستاذ.

- كيف تشعر الآن؟

- أشعر بالسوء، لقد أتممتُ خمسة عشر عاماً ولم يحدث أيّ شيء.

- هذا لأنّك لا تنفكّ تفكّر في عذريّتك، عليك التروي من أجل الحصول على الجنس.

- إن كنت قد دعوتني لتعطيني درساً فتذكّر أن اليوم هو السبت يا أستاذ، أيّ، إنّه يوم العطلة من المدرسة.

يسحب الكرة من تحت قدمي وينطلق راكضاً في الملعب، يراوغ لاعبين متخيّلين، يصل إلى السلّة فيسدّدها بمهارة بأطراف أصابعه محرزاً نقطة أخرى.

يعود إليّ وقد تحسّن مزاجه.

- النقود التي أقرضتني إيّاها كانت من أجل هذا.

أضع على ركبته العارية تذكرة قطار.

- هل سنذهب إلى أنغول؟

- بل ستذهب أنت.

- وحدي؟

- كنت تتباهى للتو أنك أتممت الخامسة عشرة.

- لن يسمحوا لي بالدخول وحدي يا أستاذ.

- وكيف تعرف ذلك؟

- لأنّني جربت الدخول منذ سنتين.

- حسناً، كنت طفلاً رضيعاً وقتها.

يحكّ المنطقة بين أنفه وشفته العليا، ثم يطلب منّي أن أتلمّسها.

- هل تلاحظ ظهور شاربي؟

مخطّطي الصباحيّ يسجّل تقدماً على كلّ الأصعدة، أعطيه الآن ورقةً وضعتها داخل ظرف، وفيها جميع التعليمات.

- ستفتح الظرف في بيتك، ثم ستكون في محطّة القطار في الساعة الرّابعة.

- حاضر يا أستاذ.

- وستجلب معك كلّ ما طلبته منك في الورقة.

- بالتأكيد.

- ستحتاج إلى خمسة آلاف بيزو فقط، لا داعي لأن تأخذ معك الحزمة كاملة.

- واضح. خمسة آلاف.

- ستلبس بنطالاً طويلاً وستضع ربطة عنق، أنت ستلتقي بسيّدةٍ أنيقة.

يتلمّس غوتيّريث عنقه كما لو كان فعلاً قد عقد ربطة عنق حمراء حوله. يعدّد:

- خمسة آلاف بيسو، «يوميّات الحياة»، بنطال طويل.

- باقي ما تبقّى موجودٌ في الظرف.

- إنّك معلّمٌ عظيم يا أستاذ!

- تستطيع توفير وجهة النظر هذه لتقولها إلى قائد الشرطة حين يحين ميعادها. قد أُسجن من أجلك.

ينظر غوتيّريث بترقبٍ إلى ساعته وينقر عقاربها علّ هذا يشجّعها على بلوغ الرابعة بعد الظّهر.

أربعة وعشرون

الرّابعة إلّا خمس دقائق. في العادة، يكون رصيف القطار في محطّة كونتولمو خالياً من أي أحد، لكنه اليوم يبدو وكأنّه مركز احتشاد الجماهير لحدثٍ سياسيٍّ ما.

أستطيع التمييز بين ثلاث مجموعاتٍ واضحة.

أمّي ملتحفةً بمعطفها الجلديّ، قبّعتها المصنوعة من الشّعر والتي تشبه أزياء الأفلام في الأربعينيّات، قفّازات جلد الماعز السوداء، وأخيراً مظلّتها التي تحركها متأملةً.

تيريسا غوتيّيريث ترتدي تنورةً وسترةً صبيانيّة، ويغطّي كتفيها ورقبتها وشاحٌ رمادي، تضع بين قدميها حقيبة سفرٍ جلديّة بلون القهوة الشاحب.

مدير المحطّة يحاول نسج خيوطٍ تربط بين أبطال قصّتي.

وصلتُ كمصاب مدمى جراء رصاصةٍ، لكن بهوسٍ تحركني مؤامرتي.

أتوجّه إلى مدير محطّة القطار قبل الاقتراب من أبطالي، أريد أن أملي عليه ما يتوجّب عليه قوله لوالد غوتيّيريث اللّيلة عندما يعبر الأخير سكّة القطار في لباس النوم، باحثاً عن ولديه أوغستو وتيريسا. عليه الكذب والقول إنّه شاهد تيريسا ترحل مع أخيها إلى أنغول.

- الازدحام شديد اليوم.

- ومنوّع أيضاً، السيّدة هي والدتك. أليس كذلك؟

- أجل، إنّها ذاهبة إلى أنغول لاستقبال طردٍ أرسله والدي من باريس.

- الأخَوان غوتيّيريث أيضاً.

- تيريسا ترافق أخاها لتبديل هديّة جاءته في عيد ميلاده، إنّه قميص ذو قياسٍ صغير، يشبه قميص جيمس دين.

- وماذا عنك؟

- أنا جئت كي أودّع أمي.

أسير أولاً باتّجاه مجموعة غوتيّيريث.

تيريسا تبدو شاحبة على غير عادتها، بقايا آثار الطّفولة تلك التي لطالما حمتها تبدو كأنّها سالت منها وتبخّرت. تقف قبالي بجهوزيّة يائسة. فقد سمحت لنفسي اختلاق تلك الكذبة بأنّها ذاهبة إلى أنغول، ليتسنّى لي تعريتها كما أشاء في سريري هنا في كونتولمو.

أتفقّد الآن طالبي: بنطالٌ رماديٌّ ممتاز، قميصٌ أزرقٌ مكويّ، ربطة عنقٍ حمراء مبرقعة بالأبيض، وشعرٌ مصفّف رفعه باستخدام مثبّت الشعر كالبالغين. يحمل وسط كل هذا مجسم الكرة الأرضية كتفّاحةٍ زرقاء كبيرة منتصرة، الكرة نفسها التي ساعدته في نيل أعلى درجة في الجغرافيا في المدرسة.

- ستقدّم هذه للآنسة لونا.

- العالم، والخمسة آلاف بيسو.

- أوّلاً العالم، ثم النقود حين يأتي دورها.

أخذُ الكرة الأرضيّة كهديّة لها كانت فكرتي.

يصل القطار المحطةَ وهو يطلق صفيره من دون أي مبرّر، يخيّل لي أحياناً أن السائق يطلق الصفّارة لكي تبقيه مستيقظاً فحسب. فقطارٌ مسالم وروتينيّ كهذا سيصل أنغول من دون سائقٍ أصلاً.

أقترب من أمّي وأساعدها على صعود سلالم المقطورة، تنحني لتعطيني قبلة.

- ليكن مساؤك حافلاً، جاك.

- ومساؤك أيضاً يا أمي.

- ستحدّثني غداً عن الأمر.

- سيحدّث كلّ منّا الآخر غداً.

- ما اسم فيلم أنّا ماغنيني؟

- «رياح عاتية».

يطلق مدير المحطّة زموراً، ويتأكد من أن الساعة تشير إلى الرّابعة عصراً في معصمه للمرة العاشرة، وأنّ ساعة المحطة معطلة منذ خمس سنواتٍ تشير إلى الساعة الثالثة وعشر دقائق.

خمسة وعشرون

في البيت ما إن أخرج إبريق الليموناضة من الثلّاجة لأقدّم كأساً لتيريسا، حتى أجدها انفجرت بالبكاء.

وددت لو أنّي أسألها عن السبب، أو أواسيها، أشتمُّ جلدها وأداعب أذنها، أو ألعق رموش عينيها ثم أبتلع ذاك الكحل الشاب الذي يسيل منها.

لكنّ قلبي غائب، خفقاته معلقة بتلك العجلات البائسة للقطار الذي يذهب إلى سينما أنغول.

فإنّ إميليو يحتاج إلى أمٍّ ترعاه.

النهاية

أنطونيو سكارميتا:

كاتب من تشيلي، ولد في العام 1940 لوالدين من أصول كرواتية. درس الفلسفة والأدب في تشيلي ومن ثم في الولايات المتحدة الأمريكية. حصل على عدة جوائز أدبية أهمها الجائزة الوطنية للأداب - تشيلي.

ترجمت أعماله إلى عشرين لغة حول العالم، وجُسِّد بعضها في أفلام سينمائية، منها كتابه الأشهر ساعي بريد نيرودا (الصبر المتحرق) وأب سينمائي.

كتب وأخرج عدة أفلام سينمائية، كما عمل لفترة سفيراً لدولة تشيلي في ألمانيا.

عمّار الأتاسي:

ولد في مدينة دمشق عام 1985.

درس العلاقات الدولية في جامعة القلمون، حائز على شهادة (DELE C2) في اللغة الإسبانية من معهد ثيرفانتيس في دمشق.

صدر له عدد من الترجمات الأدبية والبحثية والمقالات المكتوبة.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

عندما نزل جاك من القطار حاملاً شهادته من معهد إعداد المدرسين، صعد والده إلى القطار نفسه، واختفى.

مسكوناً بهجران والده له، يمضي يومه مدرِّساً في قريته الصغيرة صباحاً، ونديماً لطحَّان القرية في الأمسيات، محاولاً أن يعرف منه سرَّ اختفاء أبيه.

يشجِّعه الطحَّان على مشاركته في مغامرة تخرجه من عالمه الصغير إلى ماخور المدينة المجاورة، ويحاول تلميذه المفضَّل مشاركته هذه الرحلة السرِّية.

مع الشاب الباحث عن أبيه، والمراهق الباحث عن رحلة البلوغ، والعلاقات الصغيرة المعقدة لسكان قرية صغيرة، يأخذنا سكارميتا في رحلة عذبة عن الفقدان والنضج والمغفرة.

ISBN 978-9933-540-56-2
9 789933 540562
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع